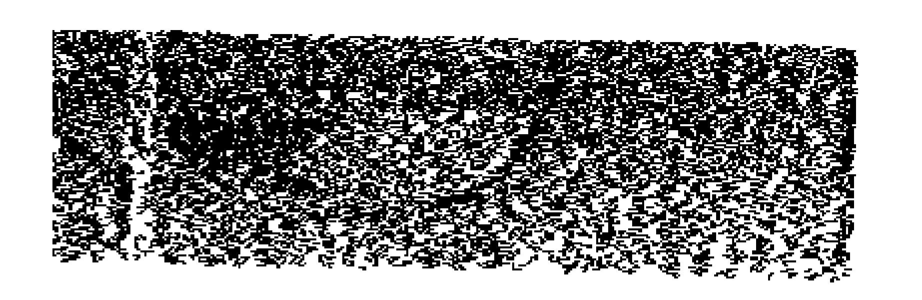

كتابى
١١
الجزء الثانى
البؤساء
فكتور هيجو
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع





اهداءات ٢٠٠٢
أ/حسين كامل السيد بك فهمى
الاسكندرية

كتابى



١١

يصدره : حلمى مراد

•

مطبوعات كتابى

البؤساء

فيكتور هيجو

ترجمة : د. نظمى لوقا

الجزء الثانى

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
[illegible]

كتابى

إصدار جديد

يصدره حلمى مراد

●●●

كتب دورية للقصة والثقافة الرفيعة ..

● مختارات كتابى : باقة منتقاة متجانسة لأروع الكتب العالمية .

● مطبوعات كتابى : الترجمة الأمينة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية .

● روايات كتابى : ترجمة أحدث الروايات العالمية المعاصرة .

●●●

شعار كتابى



مصباح الفكر عند الإغريق

●●●

ريشة

الأستاذ/ إسماعيل دياب

●●●

إشراف

الأستاذ/ حمدى مصطفى

●●●

المكاتبات

هيئة التحرير : حلمى مراد : ١٨ شارع العباسين ـ مصر الجديدة ت : ٦٧٥١٢٦ ـ ٢٩١٤٤٤٩

الناشر : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ت : ٨٢٦٢٨٠ - ٨٢٦٧٤٧

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاق بمنشية البكرى بروكسى مصر الجديدة ـ القاهرة : ت : ٨٢٦٢٨٠ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ ج.م.ع .



البؤساء

فيكتور هيجو

الكتاب الثالث

فى سنة ١٨١٧

الفصل الأول

عـــام ١٨١٧

سنة ١٨١٧ هى السنة التى أطلق عليها لويس الثامن عشر ـــ برصانة ملكية لم تخل من زهو وكبرياء ـــ السنة الثـــانية والعشرين من حكمه. وكنت ترى فيها حوانيت باعة الباروكات وقد طليت باللـــون الأزرق الذى تزينه أزهار الزنبق ، تيمنـــا بعودة الطائر الملكى . وفى ذلك الحين كنت ترى الكونت لينش LYNCH يحتل مقعد الصـــدارة كل يـــوم أحد فى كنيســـة ســـان جـــرمان دى بريـــه St. GERMAIN-DES-PRES فى كسوة تشريفة كبراء فرنسا ، بوشاحه الأحمـــر ، وأنفه الطويل ، ووقار محيا رجل قام بعمل له دوى . وهـــذا العمل المدوى الذى قام به الكونت لينش هو هذا : أنه عنـــدما كان عمدة بوردو BORDEAUX فى ١٢ مارس ١٨١٤ بادر بتسليم المدينة إلى الدوق دانجوليم Duc D'ANGOULEME ومن ثم حصل على رتبة كبير من كبراء فرنسا .

وفى سنة ١٨١٧ كان الجيش الفرنسى يلبس البياض على الطريقة النمســـوية ، وكانت الآلايات تحمل أسماء المقاطعات بدلا من الأرقـــام . وكان نابليون منفيـــا فى ســـانت هيـــلانة SAINTE-HELENE ، ولما كانت الحكومة البريطانية ترفض السماح له بقماش من الصوف الأخضر ، لذا كان يقلب بدله القديمة .

وفى سنة ١٨١٧ كان بليجرينى PELLEGRINI يغنى ، وكانت الآنسة بيجوتينى BIGOTTINI ترقص ، وكان يوجد فى فرنسا بروسيون كثيرون ، وكان المسيو ديلالو DELALO شخصية بارزة. وثبتت الملكية الشرعية أقدامها بأن قطعت معصم ثم رأس بلنييه PLEIGNIER وكاربونو CARBONNEAU وتوليرون TOLLERON وكان الأمير تاليران TALLEYRAND كبير الأمناء «والأبيه لوى» ABBE LOUIS وزير المــالية ، وكانا يتبادلان النظرات ويضحكان . فكلاهما كانا فى ١٤ يوليو سـنة ١٧٩٠ قد اقامـا قداس الاتحــاد فى ميــدان مارس CHAMP-DE-MARS وقد قدم تاليران هــذا القداس بصفته اسقفا ، ولوى بصفته شماسا . وفى سنة ١٨١٧ كنت ترى فى ميدان مارس هذا أسطوانات ضخمة من الخشــب ، يغمرها ماء المطر وتتعفن وسط العشب ، وقد طليت باللــون الأزرق وعليها آثار نسور نصل تذهيبها. وكانت هذه هى الأعمدة التى ارتفعت فوقها منصــة الإمبراطور قبل عامين فى حقل مايــو CHAMP DE MAI ، ولكنها كانت قد اسودت هنا وهناك بنيران أوقدها للتدفئة جنود النمسا المعسكرون قرب جرو كايو GROS-CAILLOU . وقــد اختفت ثلاثة من هذه الأعمــدة وصارت حطبا لهذه النيران واستدفأ بها الجنود ذوى الأيدى الضخمة .

وفى سنة ١٨١٧ كانت مثار اهتمام باريس جريمة دوتان DAUTUN الذى كان قد القى رأس أخيه فى حوض سوق الأزهار . كما كانت وزارة البحرية مشغولة بانقطاع أخبــار

الفرقاطة لا مديز LA MEDUSE . وكان الكولونيـل سيلف SELVES قد توجه إلى مصر لكى يغدو بعد ذلك سليمان باشا الفرنساوى . وقصر تيرم THERMES فى شارع هارب HARPE صار ورشة صانع دنان . وكانت لا تزال ترى على شرفـــة فى برج قصر آل كلونى CLUNY الحجيرة التى كانت مرصدا لمسييه MESSIER فلكى البحرية الفرنسية فى عهد لويس السادس عشر . وكان العمال فى اللوفر يكشطون الحرف «ن» . وجسر أوسترلتز AUSTERLITZ تغير اسمه وصار جسر حديقة الملك . وحديقة الملك هذه هو الاسم الجديد لحديقة النباتات ! وشطب المعهد الفرنسى L'INSTITUT من قائمـــة أعضائه الأكاديمى نابليون بونابرت . وصدر أمر ملكى بإنشاء مدرسة البحريـــة فى انجوليم ANGOULEME ، لأنه بما ان الدوق دانجوليم صار الأميرال الأكبر ، فلا بد لمدينة انجوليم أن تصبح – بقدرة قادر – ميناء بحريا ، وإلا تأذت السلطة الملكية !

وفى هذه السنة تم تزويج اميرة من صـــقلية إلى الدوق دى بيرى DE BERRYO . وكانت قد مضت سنة على وفاة مدام دى ستايل STAEL . والصحف الكبرى صارت صغيرة . وصغر حجمها ولكن زادت حريتهـــا . وهى حريـــة الـــكتاب المأجورين فى الصحف لسب المنفيين ســـنة ١٨١٥ السياسيين وتشويه سمعتهم ، وعلى رأسهم دافيد وارنو ARNAULT وكارنو CARNOT . وأما سولت SOULT فلم يفز فى اى معركة ، وأما نابليون فكان بلا عبقرية . وكان معروفا أن من

النادر ان يصل اى خطــابات بالبريد إلى شخص منفى ، لأن الشرطة كانت تتكفل بحجزها . وقد أجمع الكل على أن عهد الثورات قد ختم إلى الأبد بتولى لويس الثـــامن عشر عرش فرنسا الذى فسخ وأبطل كل ما صنعه نابليون ، وقلب القيم العسكرية والأدبية حســـب أهواء الملكية فى كل المجــالات . وصار أى تعريض — ولو بالنكتة — بالملكية يعاقب بصرامـــة بالغة .

وفى هذه السنة أيضا ابتدع أربعة شبان باريسيين ملهاة فذة .

الفصل الثانى

رباعى مزدوج

كان هؤلاء الباريسيون الأربعـــة ، أحـــدهم من تولوز TOULOUSE والآخر من ليموج LIMOGES والثالث من كاهـــور CAHORS والرابع من منتويان MONTAUBAN . ولكنهم كانوا طلبة علم فى باريس . ولذا قيل إنهم باريسيون .

وكان هؤلاء الشبان بلا وزن ولا اهمية ، فقد رأى العالم هذا النوع من الشخصيات العادية. فهم عينات لا تتميز بشىء، فلا هم طيبون ولا هم أشرار . ولا هم علماء ولا هم جهلاء ، ولا هم عباقرة ولا هم بلهاء . وجمالهم هو جمال هذا الربيع من العمر الذى هو سن العشرين . وكانت موضة الشـــباب تقليد الإنجليز وأهل الشـــمال . فمنـــذ قليل انتصر ولنجتن WELLINGTON فى ووترلو !

وكانت أسـماء هـــؤلاء الأربعـــة : فليكس تولومييس FELIX THOLOMYES من تولوز ولستولييه LISTOLIER من كاهور وفـــامى FAMEUIL من ليموج وبلاشـــفيل BLACHEVELLE من منتويان. وطبعا كان لكل واحد منهم عشيقته . فبلاشفيل كان يحب فافوريت FAVOURITE ؛ وقد اتخذت هذا الاسم لأنها كانت قد ذهبت فترة إلى إنجلترا .

ولستولييه كان يعبد داليا DAHLIA التى اتخذت لها اسم هـذه الزهـرة اسما مسـتعارا ، وفـامى كان يهيم بزيفين ZEPHINE هو اختصـار جوزيفين . وتولومييس كـانت عشيقته فانتين FANTINE الملقبة بالشقراء ، لأن شعرها كان بلون الشمس .

وكانت فافوريت وداليـا وزيفين وفانتين أربع فتيـات رائعـات معطرات مشرقـات ، ولكن لم تزل فيهن بقيـة من السمات التى تدل على أصلهن العمالى ، فهن حديثات عهـد بترك الإبرة وانهماكهن فى حياة الحب ، ولذا بقيت على محياهن تلك الطمأنينة الخاصة التى تقترن بحياة الجد فى العمل ، ولم تزل فى نفوسهن زهرة الأمانة التى لا تبذل فى المرأة بعد زلتها الأولى . وكانت من بين الفتيات الأربع واحـدة كانت تسمى الصغيرة ، لأنها كانت أصغرهن واخرى تسمى العجوز ، لأنها كبراهن . وهذه الكبرى كان عمرها ثلاث وعشرون سـنة ! وكانت الثلاثة الكبريات أكثرهن تجربـة ، فهن غير مباليـات ومندفعات وشغوفات بضجيج الحياة أكثر من فانتين الشقراء، التى كانت هذه أول مغامرة لها . أما داليا وزيفين ، وفافوريت على الخصوص فلم تكن هذه أول علاقـة غراميـة لهن . بل سبقت لهن وقائع كثيرة ، مع أنهن لم يزلن فى بدايـة روايتهن العاطفية . ولكن العاشق الذى قد يكون اسـمه أودولف فى الفصل الأول من هـذه الرواية . يصبح اسـمه الفونس فى فصلها الثانى ، وجوستاف فى فصلها الثالث . والفقر والفنج مشيران سيئان للفتاة ، وبنات الشعب الجميلات لهن دائما

هذان المشيران اللذان لا يكفان عن الهمس فى الأذنين ، كل منهما من جهته . والنفوس التى لا حارس يصونها من الزلل تصغى للوسوسة وتنقاد لها ، ومن ثم ما يتردين فيـــه من عثرات ، وما يرمين به من الأحجار ،وما يتهمن به من انحلال، ويقال لهن كلام كثير رائع عن الســـلوك الذى لا غبار عليه والشرف المصون . واحر قلباه ! وماذا تصنع الفتـــاة الغريرة الجميلة إذا عضها الجوع بنابه ؟

ولما كانت فانوريت قد زارت إنجلترا ، لذا كانت موضع إعجاب زيفين وداليا . فهى منذ وقت مبكر جدا صار لها مسكن خاص . وكان والدها استاذا مسنا للرياضيات فيه شراســـة ومحب للزهو والمبالغة ، ولم يتزوج قط ، وظل رغم تقدمه فى السن ماجنا خليعا . وقد حدث لهذا الاستاذ وهو شـــاب أن راى ذات يوم ثوب خادمة يتعلق بســـياج مدفأة فيكشف عن المستور من مفاتنها ، فوقع فى غرام هذه المفاتن ، وكانت ثمرة هـــذا الهوى النزق فانوريت. وكانت تقابل بين الحين والحين اباها الذى كان يحييها . وذات يوم دخلت عليها فى مسكنها امراة عجوز وقالت لها :

— الا تعرفيننى يا آنسة ؟

— لا .

— انا امك !

ثم فتحت العجـــوز البوفيـــه ، وشربت واكلت ، واتت بحشية كانت تملكها واستقرت لديها . وكانت هذه الأم كثيرة التذمر ولكنها لا تكلم فانوريت ابدا، وتظل ساعات متواصلة من

غير أن تقول شيئا ، إلا انها كانت تفطر وتتغذى وتتعشى كأنها أربعة أشخاص ، وتنزل لتتسامر مع البواب وتغتاب ابنتهـــا عنده !

أما ما جمع بين داليا ولستوليبه ، وآخرين من قبله ، واغراها بالكسل والبطالة فكان ما تتمتع به من أظـــافر وردية جميلة . فكيف تهين هذه الانامل بالعمل ؟ ومن تريد أن تحافظ على عفتها ينبغى الا تبقى على جمال يديها ...

أما زيفين فقـــد اقتنصـــت قلب فامى بطريقتها المتمردة والمعابثة معا ، وهى تقول :

ــ نعم يا سيدى !

وكان الشبان الأربعة زملاء . وكانت الفتيـــات الأربع صديقات وصواحب . فمثل هذه الغراميات تقترن بها دائمـــا مثل هذه الصداقات .

والحكمة والفلسفة شيئان مختلفان . وما يثبت ذلك اننا ــ مع تحفظاتنا على مثل هـــذه العلاقات غير الشرعيـــة ــ نستطيع أن نقول عن فافوريت وزيفين وداليا إنهن فيلسوفات، أما فانتين ففتاة حكيمة .

انقول إنها حكيمة عاقلة ؟ وتولومييس ؟ سليمان الحكيم ربما أفتى بأن الحب جزء من الحكمة . وبحسبنا أن نقول إن حب فانتين كان أول حب لها . كان حبهـــا الوحيد . كان حبا مخلصا . وكانت الوحيدة من بين الأربع التى لا يرفع الكلفة معها إلا واحد فقط .

كانت فانتين من تلك الكائنات التى ينجبها صميم الشعب. فقد خرجت من جوف أحلك ظلمات المجتمع . وقد ولدت فى بلدة « م » . من أى ابوين ؟ من يدرى ؟ فلم يعرف أحد قط أما لها ولا أبا . وسميت فانتين . لماذا فانتين ؟ لا أحد يدرى . ولكن ما من أحد عرف لها اسما سوى هذا الاسم . وكانت طفولتها فى عهد الإدارة الثلاثية، فلم يكن يذكر للمولود اسم عائلى. ولم تكن لها عائلة . وليس لها اسم عماد. فلم يكن للكنيسة فى ذلك العهد وجود ، ولم تكن قد عادت بعد لممارســة نشاطهــا . فأطلق عليها أول اسم خطر لأول عابر سبيل أن يناديهــا به وهى طفلة تجرى حافية القدمين فى الطريق . وهكذا هبط عليها اسمها كما كان يهبط عليهــا ماء المطر من السماء . وعرفهــا الكافة باسم الصغيرة فانتين . ولم يكن أحد يعرف عنها شيئا أكثر من هذا . وقد أتت هذه المخلوقة إلى الحياة هكذا عفوا . وفى سن العاشرة غادرت فانتين البلدة وذهبت لتعمل خــادمة عند فلاحين فى الضواحى . وفى سن الخامســة عشرة جاءت إلى باريس لتبحث عن رزقهــا . وكانت فانتين جميلة وظلت نقية طاهرة أطول مدة استطاعتها . وهى شقراء جميلة لهــا أسنان جميلة . وكانت بائنتهــا من الذهب واللآلىء . ولكن ذهبها كان فوق راسها ، ولآلئها كانت فى فمها .

وعملت لتعيش . وأيضا كى تعيش — فللقلب جوعــه الخاص به أيضا — عشقت .

عشقت تولومييس .

وكانت هذه العلاقة بالنسبة له نزوة ، وبالنسبة لهــا

غراما مشبوبا ـ وقد شهدت شوارع الحى اللاتينى التى تموج بالطلاب الغوانى بداية هذا الحلم . وكم من مرة راغت فانتين فى أزقة تل البنثيون ـ حيث تنعقد مغامرات كثيرة وتنفك ـ من تولوميبس ، ولكن بحيث تلتقى به ثانيـــة . فهناك طريقـــة للتجنب تشبه التصدى . وأخيرا تم اللقاء الشاعرى .

وكان بلاشفيل ولستولييه وفامى مجموعة متلازمة على راسها تولوميبس . فقد كان هو العقل المفكر الذكى المتوثب . فهو نموذج الطالب العتيق المتقدم نوعا فى السن . وكان غنيا . يبلغ دخله السنوى أربعة آلاف فرنك ، وذلك شىء جسيم فوق جبل ســانت جنيفييف . ومن حيث الشـــكل كان تولوميبس متغضن الوجه ، فقد بعض أسنانه ، وقد بدأ الصلع يدب إليه، إلا انه لم يكن يبالى أو يأسى على هـــذا ، مع أنه كان يعانى ضعفا فى الجهاز الهضمى وإحدى عينيه ينسكب منها الدمع على الدوام . ولكن بقدر انطفاء شبابه ، اتقد مرحه ومجونه ، فكان مجونه بديلا له عن الأسنان ، وكان مرحه بديلا له عن الشعر ، وكانت سخريته عوضا له عن الصحة ، وكانت عينيه الباكية لا تكف عن الضحك ! وكانت ملابسه غير مهندمة ، ولكنها من اثمن الأنواع ، وفى عروته دائما زهرة يانعة . فكأنما شـــبابه المدبر جيش ينسحب بتعبئة ونظـــام وروح معنويـــة عالية ، وضحكات جنوده تدوى كأهازيج النصر ! وقد الف لمسرح الفودفيل مسرحية رفضت . وكان بين الحين والحين ينظم اشعارا ليست ذات مستوى . إلا انه كان فكريا يشك فى كل شىء باستعلاء ، وهذا نوع من القوة فى نظر الضعفاء . وبما انه كان ساخرا واصلع ، لذا صار الزعيم .

وذات يوم انتحى تولوميس جانبــا بالثلاثة الآخرين ، وقال لهم :

ــ قريبا ستمضى سنة على مطالبة فانتين وداليا وزيفين وفافوريت لنا بأن نقدم لهن مفاجأة . وقــد وعدناهن بذلك . وهن لا يكففن عن تذكيرنا بالوعد ، ولا سيما أنا . وكما كانت النساء العجائز فى نابولى يصرخن بالقديس « يناير » : اصنع معجزة ! اصنع معجزتك! » كذلك تقول حسناواتنا لى دائما : « متى يا تومولييس تلد مفاجأتك ؟ » . . . وفى الوقت نفســه يكتب اهلنا إلينا كى نعــود إليهم . وتحت هذا الضغط من الجانبين شعرت ان الوقت قد حان . فلنتشاور فى الأمر .

وعندئذ خفض تومولييس صوته وقال شيئا غامضــا بمرح شديد ، ثم قهقه الشبان الأربعة معا ، وصاح بلاشفيل:

ــ يا لها من فكرة !

وبدت لهم فى الطريق حانة ملآنة بالدخان ، فدخلوها ، وفى ظلالها المعتمة تمت مشاورات مؤتمرهم .

وكانت ثمرة هذه المعميات رحلة متعة وقصف تمت يوم الاحد التالى ، دعا إليها الشبان الأربعة الفتيات الأربع .

الفصل الثالث

اربعة لأربعة

أقد « الازواج » الأربعة فى ذلك اليوم على كل ما يخطر بالعقل من اللهو المنطلق فى حقول الريف بالقرب من باريس . وكان يوما حارا من أيام الصيف فى بداية العطلة الدراسية ، لا تلبد سماءه السحب . وفى اليوم الســـابق كتبت فافوريت — وهى الوحيدة التى تعرف الكتابة — رسالة إلى توموليبيس باسم الفتيات الأربع ، قالت فيها « الخير فى البكور » ، ولذا نهضوا من نومهم فى الخامسة صباحا ، ثم ذهبوا إلى سان كلو SAINT-CLOUD ، ونظروا هنـاك إلى الشلال الذى كان جافا ، وتصايحوا :

— لا بد أن منظره كان بديعا حين كان فيه ماء !

ثم تناولوا الافطـــار فى مطعم « الراس الأسود » ، ثم جروا فى الحقول والمراعى ، فقد كانت هـــذه المنطقة يومئـــذ خلوية ، وقطفوا الازهار من المروج ، واشتروا نايات من نبى NEUILLY وأكلوا تفاحا اشتروه من البائعات الجائلات ، وكانت سعادتهم على أتمها .

وكانت الفتيات الأربع يصخبن ويثرثرن كأنهن حيوانات ضارية اطلقت من اقفاصها . فكان لهن زئاط جنـــونى . وكن أحيانا يوجهن ضربات مزاح إلى عشـاقهن، فكأنما هن مخمورات

برحيق الحياة فى صدر الصباح ! ويا لتلك السنوات البله من صدر الشباب ! وانت أيها القارىء كائنـا من كنت أتذكر من ايامك شبابا كهذه الأيام خلعت فيها العذار ؟ أتذكر سيرك بين الآجام ، وانت تزيح الأغصان كرامة للراس الجميل المحبوب الذى يسير وراءك ؟ هل انزلقت وانت تضحك فوق منحـدر بللته مياه المطر مع امراة تتعلق بيدك وتصيح متذمرة :

ــ حسرتى على حذائى الجديد ! فى اى حال أصبح !

ولكن لنقل منذ الآن ان المطر لم يهطل فى ذلك اليوم على تلك الجماعة الطـروب ، وإن كانت فافوريت قالت بلهجـة العليمة ببواطن الطبيعة :

ــ ارى البزاقات تتمشى فى الدروب . وهذه علامة على قرب سقوط المطر !

وكانت الفتيات الأربع كلهن فاتنات ، وقد زادهن الحبور والزياط فتنة . وفى ذلك اليوم كان شاعر تقليدى مسن مشهور يومئذ هو الشيفالييه دى لابويس DE LABOUISSE يتنزه تحت أشجار الكستناء فى سـان كلو ، ورآهن وهن يخطرن امامه برشاقة فقال :

ــ فيهن واحدة اكثر مما ينبغى .

ويعنى بذلك الاشـارة إلى عـرائس الفن الثـلاث المشهورات فى الأساطير . وكانت فافوريت . صاحبة بلاشفيل ابنة الثالثة والعشرين ــ كبراهن ــ قـد جرت أمامهن تحت

الاغصان الخضر ، ووثبت فوق المساقى وتسلقت شجيرات الدغل ، وتزعمت المرح كأنها حيوان مفترس فتى . أما زيفين وداليا فكانتا لا تفترقان، وبين جماليهما تكامل . وكان تلازمهما من قبيل الدل اكثر مما هو بحكم الصـــداقة . وكانتا تنحذان اوضاعا علىالطراز الإنجليزى الذى شاع بين الغوانى. وكان هناك نقاش محتدم بين لستولييه وفامى حــول أساتذتهم . وراحا يشرحان لفانتين الجـادة الفرق بين المســيو دلفنكور DELVINCOURT والمسيو بلوندو BLONDEAU .

اما بلاشفيل فكأنما خلقه الله خصيصـــا لكى يحمل على ذراعه يوم الأحد شال فافوريت .

وفى المؤخرة اقبل تولومييس ، الذى كان يتزعم المجموعه ويسيطر عليها . اجل إنه كان شديد المرح ولكنك كنت تلمس فيه السيطرة . فتحت غلالة مرحه ومجونه تربض دكتاتوريه. وكان ملبسه الأساسى بنطلونا له ساقا فيل ، وفى يده عصا من الخيزران الثمين ثمنها مائتا فرنك . ولما كان رجلا يبيح لنفسه كل شيء ويدللهـــا ، لذا كان فى فمه شيء غـــريب يومئذ هو السيجار . ولم يكن يحترم شـــيئا أو يقدس قيمـــة . وينفث الدخان من فمه بلا انقطـــاع . اما الآخرون فكانوا يرمقـــونه باعجاب وإجلال ويقولون :

— ما أروع تولومييس ! يا لبنطلونه ! يا لحيويته !

أما فانتين فكانت روح الفرح ، واســـنانها البديعة قد حباها الله ولا شك بمهمة فى هذه الدنيا ، هى الضحك ! وكانت

تحمل فى يدها قبعة صغيرة من القش ، اكثر مما تضعها فوق راسها ، تتدلى منها ضفائر بيضاء . وشعرها الأشقر الغزير يتطاير ويتماوج ، فكان لا بد لها من ضمه بين حين وحين ولم شعثه ، فكأنما هو شعر غلاطية الأسطورية وهى تفر هاربة تحت أشجار الصفصاف . وكانت شفتاها الورديتان تتمتمان بأغنية خافتة ، وشكلها العـــام كالبرعم الذى يدعو الناظرين للاجتراء كأنما فى فمها الجميل نداء خفى للاغراء . ولها اهداب طويلة وطفاء تلقى ظلالا على خديها . وثيابها توحى بالخفـــة والرشاقة ، كأنما هى تغريدة طيور متوهجة الريش ، ولكن فى احتشام يوحى بالاحترام .

أما الثلاث الأخريات فكن أقل منهـــا حياء ، ولذا كانت أثوابهن اكثر فتحات بحجـــة حـــر الصيف . وقبعاتهن مغطاة بالأزاهير . وكان الفرق بينهن وبين فانتين واضحا . ففانتين جميلة إذا نظرت إليها من أمام ، رقيقة إذا نظرت إليها من أحد جانبيها ، وعيناها لونهما أزرق عميق ، وقدماها صغيرتان ، والمعصم والكاحل مدملجان . ولشدة بياضها ورقة بشرتهـــا كنت ترى هنا وهناك شعيرات عروقها الزرقـــاء ، وخداها فيهما نضارة الطفولة ، وعنقها قوى . وقامتها كأنما صاغها مثال ، فى جاذبية ورقة . وهكذا كانت فانتين ، متى رأيتهـــا رسم لك خيالك تحت ثيابها تمثالا ، وفى هـــذا التمثال البديع روح ...

كانت فانتين جميلة من غير ان تشعر بجمالها . وخبراء الجمال الذين يحبون ان يقيسوا كل جمال يرونه بمثلهم الأعلى

كانوا خليقين أن يروا فى هذه العاملة الصغيرة ، تحت شفافية الرشاقة الباريسية كل الوسامة الكلاسيكية المقدسة . فهذه الفتاة المجهولة الأصل كانت تنبىء عن عراقة كعراقة الخيول الأصيلة ، وكانت جميلة قالبا وإيقاعا . أما القالب فهو هــذا الشكل المثالى المتناسق . وأما الإيقاع فهو الحركة الهفهافة الرفافة .

ولقد قلنـــا آنفـا إن فانتين كانت روح المــرح والفرح والبهجة . ومن الحق أن نقول أيضا انها كانت الحياء . فمن يرقبها عن كثب ويدرسها بإمعان ، كان حريا أن يلمس فيهــا من خــلال خمر الشــباب وخمر الربيع وخمر الحب والهيام تعبيرا قاهرا طاغيا عن التحفظ والحياء والتواضع . فقد ظلت وسط هذا الزياط تبدى شيئا من الدهشة . وهــذه الدهشة الطاهرة هى الســمة التى تميز بسيشيه PSYCHEE (أى النفس) عن فينوس . وكانت أصابع فانتين طويلة بيضـــاء رقيقة كأنها أصابع كاهنة قديمة تحرك رماد النار المقدســة بدبوس من الذهب . ومع أنها لم تكن تضن بشىء على تولومييس أو تمنع عنه شىء — وهذا واضح لذى عينين — إلا أن وجهها وهى ساكنة فيه أمارات العذرية ، وكان لون من الوقار الجاد الذى يوشك أن يكون صارما يعتريها فى ساعات معينة فجأة . فيؤثر فى نفس من يراها نضوب المرح على حين غرة دفعة واحدة ، لتحل محله الجهامة ، من غير أن تتوسطهما فتــرة انشراح . وكانت هــذه الصرامة تشــبه أحيانــا تعالى ربة أسطورية . ويبدو عندئذ التوازن الفذ بين جبينها وأنفهــا

وذقنها ، وهو توازن متميز تمامــا عن توازن التناسب الذى ينجم عنه تناسق الوجه . وفى المســافة التى تنفصــل قاعدة الأنف عن الشفة العليا كان هنــاك خط لا تكاد تراه العين ، يزيدها فتنة ، لأنه العلاقة الخفية للطهـــر . فلئن كان الحب زلة ، فقد كانت فانتين هى البريئة الطاهرة التى تطفو فوق سطح هذه الزلة .

الفصل الرابع

نولوميس فى قمة البهجة حتى أنه تغنى بأغنية اسبانية

وكان ذلك النهار كله من أوله إلى آخره نسيجا ممتدا من الفجر . فكأن الطبيعة كلها فى يوم عطلة ، فهى ضاحكة ، ومروج سان كلو كلها معطرة ، ونسمات السين تحرك أوراق الأشجار ، والأغصان تلوح وتتهادى مع الريح ، والنحل ينهب الياسمين ويسلبه رحيقه ، وقافلة من الفراشات تتهافت على الأزهار والنباتات . وكان فى حديقة الملك الباهرة قطيع من الأفاقين ، هى العصافير .

وجعل « الأزواج » الاربعة يمرحون كالمجانين بين الشمس والحقول والأزهار والأشجار والأطيار . وفى هذا الفردوس راحت الفتيات يتحدثن ، ويغنين ، ويرقصن ، ويجرين ، ويطاردن الفراشات ويقطفن الأزاهير ، ويبللن جواربهن المطرزة بين الأعشاب الطويلة ، وهن كالمجنونات من المرح والفرح ، وتنهال عليهن القبلات بلا تمييز من كل الشبان . فيما عدا فانتين التى بقيت متحصنة داخل مقاومتها العنيدة الحالمة ، لأنها كانت عاشقة ــ وقالت لها فافوريت :

ــ انت دائما تبدين جادة .

وهذه هى الأفراح ، وكان مرور هؤلاء الأزواج السعداء نداء عميقا موجها إلى الحياة وإلى الطبيعة ، يستخرج من



وتنهـال عليهن القبـلات بلا تمييز من كل الشبان . فيما عـدا فـانفين التى بقيت متحصــنة داخل مقــاومتها العنيـدة . .

الجميع الملاطفة والمداعبة والنور . فقد كانت ــ فيما يقال ــ هناك جنية صنعت المروج والأشـــجار خصيصا للعاشقين ، ومن ثم حب العشاق للخلوات والمروج ، وهرب التلاميذ من المدارس إليها . وسيظل الحال هكذا ما بقيت هناك مدارس وحقول وأدغال . ومن ثم شهرة الربيع المحبب إلى المفكرين . فالثرى ومن رزقه الكفاف ، والدوق والعامى، ورجال القصور واهل المدن ، كلهم رعايا هـــذه الاعيـــاد الطبيعية . فالكل يضحكون ويلعبون ، وفى الهواء صفاء كصفاء الألوهة . الا ما ابهى الحب وما أقدره على تغيير الناس! فاذا الكتبة والموثقون آلهة ! والصرخـــات الصـــغيرة والتعقب بين الأعشـــاب ، واقتناص الخصور التى تصهرها الأذرع العاشقة ، والكلمات المتطايرة كالتغريد ، وحبات الكرز التى تنتقل أو تنتزع من فم إلى فم ــ كل هذا يتلألأ وسط هـــذا المهرجان السماوى ! والحسناوات يتركن أنفسهن نهبـــا للهائمين بهن ، والجميع يعتقدون أن هـــذا لن ينتهى ابدا . والفلاسفة والشـــعراء والرسامون ينظرون إلى هذه النشـــوات ولا يعرفون مـــاذا يصنعون بها أو يفهمون منها . ولكنها تبهرهم .

وبعد الإفطـــار ذهب الأزواج الأربعـــة ليروا فيما كان يسمى يومئذ مربع الملك شجرة جلبت حديثا من الهند، لا نتذكر الآن اسمها ، وكانت هذه الشجرة تجتذب فى تلك الأيـــام كل اهل باريس لمشاهدتها فى سان كلو . وهذه الشجرة تتفرع فوق ساقها فروع كثيرة رفيعة كالخيوط لا يحصيها العـــد ، وتغطى هذه الغصون التى لا اوراق لهـــا ملايين الأزهـــار

البيضـــاء ، فكان الشـــجرة تاج من الشعر الغزير المغطى بالأزاهير ، ومن حولها دائما جمع غفير ينظر إليها ويعجب بها.

ولما فرغوا من مشاهدة الشجرة ، صاح تولومييس :

ـ أنا أدعوكم لركوب الحمير على نفقتى .

ولما يتم الاتفاق على الأجر مع مكارى ، ركبـــوا الحمير على طريق فانفر VANVRES وايسى . ISAY وفى إيسى وجدوا الحديقة الكبيرة التى صارت الآن ملكية عامة ، وكانت فى ذلك العهد مملوكة لصانع الذخيرة بورجان BOURGUIN . مفتوحة على مصراعيها ، فدخلوها وجاســوا بين أركانهـــا العجيبة ، وزاروا حجرة المرايا الشهيرة ، ثم ذهبوا إلى تلك الحبال المعلقة بين فروع أشجار الكستناء ، فصارت تستخدم ارجوحات للاطفال . ولكنها اليوم صارت ارجوحات للغوانى الاربع ، وكان واحد من الشبان يؤرجح صاحبته على التوالى وهن يضحكن من قلوبهن . وترتفع مع ضحكاتهن ذيولهن فى الهواء. وانتشى تولومييس التولوزى بهذا المنظر، وأهل تولوز فيهم دماء أسبانية ومدينة تولوز ابنة عم تولوزا TOLOSA الأسبانية ، فاستخف الطرب تولومييس وغنى اغنية أسبانية قديمة اسمها جاليجا GALLEGA . لعل الشاعر الاسبانى القديم استلهمها من حسناء كانت تتأرجح بكل قوتها على حبل مدلى بين شجرتين فى مروج الاندلس .

ولم ترفض ركـــوب الأرجوحـــة إلا فانتين ، التى قالت بضيق واضح :

ـ انا لا أحب هذه الالاعيب . . .

وترجل الثمانية عن الحمير وتركوها للمكارى ، وحظوا بمتعة من نوع جديد، فعبروا السين فى قارب. ونزلوا فى باسى PASSY ومشوا سيرا على الأقدام إلى حافة الإتوال . وهناك تذكروا انهم ظلوا وقوفا على أقدامهم منذ الخامســـة صباحا . وعلقت فافوريت على ذلك بقولها :

ـ ولكن لا محل للتعب فى يوم الأحـــد . فالتعب لا يعمل يوم الاحد !

وفى نحو الســـاعة الثالثة مضى الجميع يجرون اقدامهم إلى الجبال الروسية ، وهى صرح غريب الشكل كان يحتل فى ذلك الحين مرتفعات بوجون BEAUJON وتشاهد تموجاته المتعرجة من فوق أشجار الشانزليزيه .

وبين الحين والحين كانت فافوريت تصيح :

ـ وأين المفاجأة ؟ أريد المفاجأة .

فيجيبها تولومييس :

ـ صبرا . صبرا .

الفصل الخامس

عند بمبردا

وبعد الفراغ من الطواف بالجبال الروسية ، بدا التفكير فى الغداء. وقصد الثمانى السعيد إلى حانة بمبردا BOMBARDA ، وهى ملحق أقامه هذا المطعم المشهور فى الشانزليزيه ، وكانت لافتته ترى فى شارع ريفولى بجوار ممر ديلورم DELORME.

وفى حجرة كبيرة ولكنها قبيحة ، بها فى الصدر خلوة وفراش (ونظرا لازدحام الحانة فى يوم الأحد لم يكن للثمانى به من قبول هذا المكان) ولها نافذتان يمكن منهما ، من وراء أشجار الداردار ، رؤية الضفة والنهر ، وشعاع شمس أكتوبر يداعب هاتين النافذتين ، وبالحجرة مائدتان فوق إحداهما ، جبل من باقات الأزهار وقبعات الرجال والنساء . وإلى المائدة الأخرى جلس الثمانى حول زحام من الأطباق والأكواب والزجاجات ، وقدور الجعة التى تزاحمها قوارير النبيذ . وأمكن تدبير شىء من النظام فوق المائدة ، مع شىء من الفوضى من تحتها . وكما قال موليير :

« كانت لهم تحت المائدة ضجة » .

« كضجة النرد من تزاحم الأقدام وتراكبها ! » .

وهكذا انتهت فى الرابعة والنصف مساء تلك الرحلة التى بدأت فى الخلاء فى الخامسة صباحا . ومع جنوح الشمس

للمغيب ، أخذت الشـــهية الجائعة تخمـد بألـــوان الطعـــام والشراب .

وكانت الشانزليزيه مغمورة بالشمس ومزدحمة بالناس ، كأنها كتلة من الضياء والغبار ، وهما العنصران اللذان يتكون منهما المجد ، وجياد مارلى MARLY ، من الرخام الصاهل ، كأنها تتواثب وسط سحابة من الذهب . والعربات التى تجرها الخيول المطهمة تروح وتغدو ، وكتيبة من جنود الحرس يتقدمها نافخ البوق تهبط إلى هناك من شارع نيى NEUILLY ، والعلم الأبيض الذى صبغته الشمس الغاربة بلـون وردى خفيف يرفرف فوق قبة التويلرى TUILERIE . وميدان الكونكورد الذى صار اسمه مرة أخرى ميدان لويس الخامس عشر غاص بالمتنزهين المنشرحين . وكثيرون من الناس كانوا يحملون زهرة زنبق من الفضة معلقة فى شريط أبيض من الحرير المموج الذى لم يكن قد اختفى بعد فى سنة ١٨١٧ تمـــام الاختفاء من الصدور . وهنا وهناك كانت الفتيات الصغيرات يتراقصن فى حلقات وسط الناس وهن يصفقن بأيديهن ويتغنين بأغنية كانت شائعة يومئذ تنديدا بحكم المائة يوم .

وكان كثير من العمال فى ثياب يوم الأحد يلبسون زهرة الزنبق مثل أبناء الطبقة الوسطى . ويمرحون فى المنـــازه ويركبـــون الأحصنة الخشـــبية التى تدور بهم وهم يضحكون ، وكثيرون غيرهم يشربون ، وبعض صبيان المطابع يرتدون على رءوسهم قلانس من الورق وتعلو ضحكاتهم . فالجميع كانوا مشرقين . فقد كانت هذه الفترة فترة سلم لا خلاف عليه وتسودها طمأنينة

ملكية . وعن هذه الفترة كتب مدير الشرطة انجليس ANGLES إلى الملك تقريرا بشأن ضواحى باريس العمالية ختمه بهــذه السطور :

ـــ وإذا نظرنا إلى جميع الاعتبارات يا مولاى تبين لنا أنه لا خوف من جهة هؤلاء الناس . فهم غير مكترثين ووادعون مثل القطط . ولئن كانت جماهير الغوغاء فى الأقاليم مشاغبة ، فما هكذا جماهير غوغاء باريس . فكلهم من صــغار الناس وقصار القامة ، بحيث يبلغ حجم اى واحــد من جنود مولاى حجم اثنين منهم . فلا خوف إطلاقا من جهة جماهير باريس . ومن الملاحظ أيضا أن القامات قصرت عموما فى هذه الجماهير منذ خمسين سنة . وســكان ضواحى باريس أقصر قامة مما كانوا قبل الثورة . فلا خوف من هذا الجمهور ، فهم ليسوا مصدر خطر . فما هم إلا سوقة طيبون !

ويعتقد مديرو الشرطــة أن القط لا يمكن أن يتحول إلى أسد . ولكن هذا يمكن أن يحدث ، بل وحدث فعلا . وهــذه هى معجزة شــعب باريس . ولقد كان القط ـــ الذى يزدريه الكونت انجليس بهذه الصــورة ـــ معبودا قديما للقدمــاء ، وكانوا يرون فيه رمز الحريــة . وفى مقابل تمثــال مينرفا فى بيريه PIREE كان يوجد تمثال هائل من البرنز لقط فى ميدان عام بكورنثوس. ولكن شرطة الملكية العائدة إلى فرنسا كانت ترى شعب باريس بمنظار جميل . ولكنه ليس من الســوقة الطيبين على الاطلاق . فالباريسى بالقياس إلى الفرنسى بمثابة الأثينى بالقياس إلى اليونانى . وما من أحد ينام أعمق من نوم الباريسى ، ولا أحد اكثر منه خفة ولا أميل للدعة والكســل ،

ولا احد يباريه فى النسيان . ولكن حذار من الاعتماد الأعمى على هذه المظاهر ، فهو مسرف فى عـــدم المبالاة ، ولكن متى تبين له هدف مجيد ، غلت مراجل غضبه . وإن أتيحت له الحراب صنع بها العاشر من أغسطس ، وإذا أتيحت له البنادق صنع بها استرلتز . فهو الذى ارتكز عليه نابليون ، واعتمد عليه دانتون . وإذا تعرض الوطن للخطـــر تدافع إلى الانخراط فى الجيش . وإذا تعرضــت الحرية للخطـــر راح يخلع بـــلاط الشوارع ويقيم المتاريس .فاحذروه ! لأن قميصه يتحـــول فجاة إلى ثوب عسكرى ، وشعره يتحول عندما يغضب إلى اشواك . وهذا العامل القزم يتحول فى ســـاعة الخطر إلى عملاق ، وتتحول أنفاسه الوادعة إلى عاصفة هوجاء ، فترى هذه الصدور العجفاء تطلق رياحا تكفى لزلزلة ثنايا جبـــال الألب . وبفضل هـــذا العامل الباريسى ســـاكن الضواحى امتزجت الثورة بالجيش وتمكنت من اكتساح أوربـــا . ولئن تغنى فهذه متعته وفرحــــه . ولكن قس أغانيه إلى طبيعتـــه الجياشـــة تر عجبا ! واطلب إليـــه أن ينشد المارسييز ، تره يحرر العالم من الطغاة !

اما وقد سجلنا هذا التعليق على تقرير الكونت انجليس، فهيا بنا نعد إلى أصحابنا الثمانية ، وقد أوشـــك الغداء على الانتهاء

الفصلَ السادس

وهو فصل يسوده الهيام حتى العبادة

احاديث المائدة واحاديث الغرام . كل منهما امور غير ملموسة . فأحاديث الحب سحب ،واحاديث المائدة دخان . .

وكان فامى وداليا يدندنان . وتوموليبيس يشرب، وزيفين تضحك ، وفانتين تبتسم . ولســـتوليبيه كان ينفخ فى نفير من الخشب اشتراه فى سان كلو . وفافوريت كانت ترمق لاشفيل برقة وتقول بهيام :

ـــ بلاشَفيلَ ! انا اعبدكَ !

جر هذا القول بلاشفيل إلى سؤال :

ـــ وماذا ترينك صانعة يا فافوريت لو كففت عن حبك ؟

فصاحت فافوريت (ومعناها بالإنجليزية المفضـــلة او المحظية) :

ـــ انا ؟ لا تقل هذا ، ولو على سبيل الضحك ! لو كففت عن حبى قفزت وراءك ، وخمشتك وقذفتك بالماء ، وجعلتهم يقبضون عليك !

فابتسم لاشفيل فى زهو شهوانى لهذا التملق لغروره . واستطردت فافوريت :

ـــ اجل ! اصرخ واستدعى الحرس ليقبضـــوا عليك ! لن اتوانى عن شىء ايها الخسيس !

وانتشى بلاشفيل بهذه العبارات ، واضطجع فى كرسيه واغمض عينيه بكبرياء .

وقالت داليا لفافوريت ـــ وهى تأكل ـــ وسط هـــذه الضجة :

ـــ اتعبدينه إذن جدا ، صاحبك هذا بلاشفيل !

فقالت فافوريت همسا ايضا وهى تتناول شوكتها :

ـــ انا ؟ امقته ! فهو بخيل . واحب شابا يافعا يسكن فى مواجهة شقتى . فهو شاب لطيف جدا . اتعرفين ؟ أن سيماه تدل على انه يصلح ممثلا . وما ان يعود إلى البيت حتى تقول امه : « رباه ! لا سبيل لى الآن إلى الراحة والهدوء . ها هو قد شرع فى الصياح ! انك تصدع راسى ! » ذلك انه يطوف ارجاء البيت ومخازن الغلال والمئونة ، وهو يرفع عقيرته إلى اعلى مستوى بالغناء، حتى أن الجميع يسمعونه أسفل البيت، ويتقاضى هذا اليافع اجرا قدره عشرون صلديا فى اليـــوم من مكتب موثق ينسخ له العرائض . وهو ابن مغن قديم . آه ! كم هو لطيف ! وهو يحبنى حب العبادة حتى أنه لما رآنى ذات يوم أعد عجينة لصنع لقمة القاضى قال لى « ياآنسة ! اصنعى يوما ما من قفازك زلابية وسآكلها ! » وهذا كلام لا يقول مثله إلا فنان ! آه ! كم هو لطيف ! وانـــا فى طريقى إلى الخبل بحب

هذا اليافع . ولكنى مع هذا أقول لبلاشفيل إنى أحبـــه حب العبادة ، وهذا كذب طبعا ! كم أنا كذابة !

وسكتت فافوريت برهة ثم أدرفت :

ــ داليا . أنا حزينة ! فالمطر لم ينقطع طول الشتاء ، والهواء يضايقنى . وبلاشفيل بخيل جدا . والخضراوات فى هذا الموسم الحار الممطر قليلة ،ولا نعثر على البازلاء الخضراء إلا بصعوبة ، فلا ندرى ماذا نأكل . وأعانى من الكآبة كمـــا يقول الإنجليز . والزبد غال جدا ! ثم انظرى حولك ! إننـــا نتغدى فى مكان به خلوة وفراش . وهذا كاف لإثارة تقززى من الحياة .

الفصل السابع

حكمة تولومييس

وفيما كان البعض يغنون ، والآخرون يتحدثون بصخب فى آن واحد، حتى تحول كل شىء إلى ضجة، تدخل توموابيس صائحا :

ـ لا يجوز أن نتحدث هكذا بطريقة عفوية وبهذه السرعة المفرطة . ولنتأمل فيما نقول إن أردنا أن نكون باهرين . ذلك أن الارتجال المسرف يفرغ الفكر فى بلاهة . ألا ترون أن الجعة التى تسـيل لا يتجمع لها أبـدا زبد ؟ لا داعى للعجلة أيها السادة ، ولنمزج الشبع بالمهابة والجلال . ولنـأكل بأناة ، فالبطء زينة المآدب . ولنتمهل . وانظروا إلى الربيع ، كم هو متمهل . أما الاسراع فإنه يفسد أشجار الخـوخ وأشـجار المشمش . والانكباب على الأكل يقتل الرشاقة ويقضى على بهجة الغداء الجيد ، لا تسرعوا يا سادة . وجريمـون دى لارينيير GRIMON DE LA REYNIERE يتفق فى هذا مع تاليران !

فثارت عاصفة من التذمر بين الجماعة . وقال بلاشفيل:

ـ تولومييس ! دعنا فى هدوء !

وصاح فامى :

ـ فليسقط الطاغية !

وصاح لستوليبه هازلا :

ــ بمبروا . بمبانس ! بمباش !

وعاد فامى يقول :

ــ اليوم الأحد .. يوم عطلة !

وقال لستوليبه :

ــ نحن ما زلنا فى حالة صحو . لم نسكر بعد !

وقال بلاشفيل :

ــ انظر كم انا هادىء !

وصاح توموليبس :

ــ اصغوا لى . لا بد من حدود لكل شىء . حتى للغداء! فالبطنة تحمل فى طياتها عقاب الشره . وعسر الهضم عقوبة إلهية للمعدة التى تسىء انتهاز الفــرص . وكل شــهوة من شهواتنا ، حتى شهوة الحب ، لها أيضا معدتها التى ينبغى الا نملأها حتى تكتظ . ولا بد أن نكتب فى الوقت المناسب كلمة النهاية ، ونحكم الرتاج على شهواتنا الجشعة . فالحكيم هو الذى يعرف متى يكف نفســه عن الاســترسال فى الوقت المناسب . ولتكن لكم فى ثقة ، فقد درست القانون ، كمــا تقول ذلك امتحاناتى وتشهد به . وقد اعددت رســالة عن وسائل التعذيب فى عهد اباطرة الرومان لكى احصــل على الدكتوراه . ولكن حصولى على هذا اللقب لا يدل بالضرورة ــ كما هو معهود فى معظم اصحاب هذا اللقب ــ على انى ابله ! فاصغوا لكلامى وانا اوصيكم بالاعتدال فى رغباتكم . فانا اقول الحق وانصحكم بما فيه خيركم . وطوبى لمن استطاع

عندما تحين الساعة ان يقدم على عمل بطولى ، ويتنحى مثلما تنحى سيلا SYLLA أو أوريجين ORIGENE .

وكانت فانوريت تصغى لهذا الكلام بانتبـــاه عميق ، فقالت :

— طوبى ! يالها من كلمة جميلة ! انا احب هذه الكلمة . وهى كلمـــة فصـــيحة تقـــابلها فى لغتنـــا العـــادية كلمـــة سعيد PROSPER ...

واستطرد توموليبس :

— يا صحابى ! أتريديون الا تخشوا وخز الشهوة وان تهجروا فراش العرس وتتحدوا الحب ؟ ما من شىء أسهل من هذا . هاكم وصفة الطبيب الخبير : الليمونادة ، والانهماك فى الرياضة والمشى ، والعمل الشاق ، ولو بجـــر الأحجـــار ودحرجتها . ولا تناموا . اسهروا ! وعيشوا على تغـــذية كطعام النساك ، وجوعوا ، وخذوا حمامات باردة .

فقال لستوليبه :

— هذا فظيع ! النساء افضل !

فقال توموليبس :

— المرأة ! حذار من المرأة ! يا سوء مصـــير من يسلم نفسه لقلب المرأة المتقلب ! فالمرأة غادرة ملتوية ! وهى إنما تكره الحية بدافع الغيرة المهنية! فالحية هىالحانوت المواجه!

فصاح بلاشفيل :

— توموليبس ! انت سكران !

فقال توموليبس :

ـــ لا تقل هذا !

فقال بلاشفيل :

ـــ إذن كن مرحا .

فأجابه توموليبس :

ـــ وهو كذلك ! موافق !

ونهض فملأ كأسه ورفعه وانشأ يقول :

ـــ عاش القيصر الذى كان عظيما ، وكان حذاؤه اعظم منه ! وأنتن أيتها السيدات ! إليكن نصيحة صديق : اخلطنها بين الجيران، إن حلا لكن هذا . فمزية الحب هى هذا الخلط ، وهذا الخطأ . ولم يخلق الحب للجد والجهامة كأنه خادمة إنجليزية . بل خلق الحب كى يهزل ويخطىء بمرح! ولئن قيل ان الخطأ سمة البشر، فأنا أقول إن الخطأ سمة العشق والهوى! آه يا سيداتى! انى أعبدكن جميعا . أوه يازيفين! يا جوزيفين! كم تكونين فاتنة حين لا تتجهمين . ولك وجه جميل لولا أنهم جلسوا فوقه ســـهوا فتفرطح . أما فافوريت ! فهى اشـــبه بالحوريات وعرائس الفنون ! وذات يوم عندما كان بلاشفيل يجتاز جدول شارع جيران بواسو رأى فتـــاة حســـناء ذات جورب أبيض تكشف عن ساقيها لتجتاز الجدول ، فأعجبه هذا الاستهلال ، ووقع بلاشفيل صريع الحب . وكان من أحبها هى فافوريت . يا فافوريت ! ان لك شفتين أيونيتين (من ايونيا ببلاد اليونان) . وكان هناك رسام اغريقى اسمه ايفوريون EUPHORION لقبوه باسم رسام الشفاه . وهـــذا

الرسام الإغريقي وحده هو الجدير برسم ثغرك ! اسمعى ! لم تكن قبلك فتاة جديرة باسم فافوريت (المحظية) .

فأنت الجديرة بأن تتلقى التفاحة مثل ڤينوس ، او بأكلها مثل حواء . فالجمال يبدأ بك . وقد ذكرت الآن حواء ، وانت التى خلقتها او تجسدينها . فأنت تستحقين براءة اختراع المرأة الجميلة . ولكن علينا الا ننخدع بالأسماء ، لانها قد تخطىء . فأنا اسمى فليكس (السعيد) ولست سعيدا . فالأسماء تكذب . وعلينا الا نتقبل مغمضى الأعين ما تدل عليه . ومن الخطأ ان نكتب إلى ليبيج للحصول على فلبن ، او إلى بو PAU للحصول على قفازات . اما انت يا آنسة داليا ، فلو كنت مكانك لجعلت اسمى روزا (وردة) . فينبغى ان تكون الزهرة ذات عبير ، وأن تكون المرأة ذات ذكاء لماح . أما فانتين فلا أقول عنها شيئا ، فهى حالمــة دائمــة التفكر وحساسة . إنها شبح يتخذ شكل حورية وله خفر راهبة ، وليس مكانها بين الغوانى ، لأنها تعيش على الأحلام والأوهام ، وتغنى ، وتصلى ، وتنظر إلى زرقة السماء من غير أن تدرى ماذا ترى ولا ماذا تصنع ، وفيما هى تحرق فى السماء تجوس خلال حديقة هجرتهــا الطيور والعصــافير . يا فانتين ، الا فاعلمى اننى — انا توموليبس ! — لست إلا وهما . ولكنها لا تسمعنى ، ابنة الأوهام الشقراء هذه . ومع هــذا فكل ما فيها نضرة ، ونكهة ، وشباب وعذوبة صــباح مشرق ! يافانتين ! أيتها الفتاة التى كانت تستحق أن تسمى مرجريت أو لؤلؤة ، انت ابنة من اجمل بنات المشرق ! ايتها السيدات ! إليكن نصيحة اخرى ، لا تتزوجن ابدا . فالزواج طعم ، إما ان

ينجح أو يفشل . فاحذرن هذه المجازفة . ولكن ماذا عساى كنت أقول ؟ إنى أستودع أقوالى أدراج الريـاح ! فالفتيات مخبولات لا شفاء لهن من جنون الزواج . وكل ما نستطيع أن نقوله نحن الحكماء لن يمنع من يحبكن الصدارات الصوفية من أن يحلمن بأزواج أثرياء يملكون تلال الألماس . ليكن . ولكن اسمعن نصحى على الأقل . إنكن تأكلن الســكريات بإفراط . وليس فى النساء من عيب مثل قرقشة السكر . أيها الجنس القارض ! إن الأسنان الصغيرة الجميلة تعبد هــذا السكر ، والسكر نوع من الملح ، والأملاح كلهـا مجففة . والسكر أشد تجفيفا ، ويمتص من العروق الدماء ، فيتخثر الدم ، ثم يتصلب . ويدب السل إلى الرئتين ، ويتلوه الموت . ولهذا يقترن مرض السكر بالسل . فلا تقرشن السكر لتطول أعماركن! وأتحول الآن إلى الرجال: قوموا أيها السادة بغارات، وليسلب كل منكم حبيبة الآخر بلا نــدم ! فالحب لا يعــرف الصداقة . فحيثما توجد فتاة حسناء ، فالعداوة بابها مفتوح . ولا هدنة هناك ، بل حرب حتى النهاية ! فالمرأة الجميلة دائما غنيمة حرب . المرأة الجميلة فعل فاضح ! وكل حروب التاريخ انتهت برقصات . والمــرأة من حق الرجــل . فروميلوس ROMULUS خطف الســـــابينيات ، وغليـــوم خطف السكسونيات ، وقيصر خطف الرومانيات . والرجل الذى لا حبيبة له يحلق كالنسر فوق حبيبات سواه . أما أنا فألقى إلى جميع الأرامل المنكودى الحظ كلمة بونابرت لجيش إيطاليا : « أيها الجنــود ! أنتم يعوزكم كل شىء ! والعــدو عنــده كل شىء ! » .

وتوقف توموليبس عن الكلام ، فقال بلاشفيل :

ــ خذ نفسا يا توموليبس !

وفى الوقت نفسه كان بلاشفيل ــ مستعينا بلستوليبه وفامى ــ يتغنى بأغنية شائعة بين صفوف العمال خالية من المعنى ، وتتجمع ألفاظها المتناغمة حيثما اتفق ، كأنما هى وسوسة الرياح ، وخطرات الغلايين المشتعلة ، ومثلها أيضا تتبخر فى الهواء . فكان ذلك الهراء هو تعليقهم على خطبة توموليبس . ولكن ذلك لم يوقف توموليبس عن تدفقه فى الارتجال الخطابى ، بل انتهز الفرصة كى يفرغ قدحه ثم يملأه، وشرع يتكلم من جديد :

ــ فلتسقط الحكمة ! انسوا ما قلته لكم ! وها أنا أشرب نخب الخفة والطيش ! فلنكن جميعا طائشين ! ولنكمل محاضرة القانون بجنون الطعام ! وليكن قانون جستنيان هو الذكر ، ولتكن المعدة هى الأنثى ! ولنستمتع بالبهجة حتى الأعماق ! إن العالم الماسة كبيرة ، وأنا سعيد . والعصافير كما أراها مدهشة ! وكل شىء جميل ، والعيد فى كل مكان ! وروحى ترفرف وتحلق فوق الغابات العذراء وفوق السفانا ! كل شىء جميل ! وها هو الذباب يطن فى شعاع الشمس . قبلينى يا فانتين !

وأخطأ ، فقبل فافوريت !

الفصل الثامن

مقتل حصان

وصاحت زيفين :

ـ الطعـــام عند ايدون EDON افضل مما عنـــد بمبردا .

فقال بلاشفيل :

ـ وأنا افضل بمبردا على ايدون . لأنه أكثر رفاهة وفخامة ، والترف هنا آسيوى . انظرى القاعة السفلى ! ان على جدرانها مرايا .

فقال فافوريت :

ـ ولكنى اشد اهتماما بما يوجد فى طبقى !

ولكن بلاشفيل ألح قائلا :

ـ انظرى إلى السكاكين . مقابضها عند بمبردا من الفضة ، أما عند ايدون فمقابضها من العظم . والفضة اقيم من العظم .

فقال توموليبيس :

ـ إلا عند من لهم ذقون من الفضة .

وكان فى تلك اللحظة يرنو إلى قبة الأنفـــاليد ، التى تشاهد من نوافذ بمبردا . وساد صمت ، وصاح فامى :

ـــ يا توموليبيس . منذ قليل نشبت مناقشة بينى وبين لستولييه .

فقال توموليبيس :

ـــ المناقشة حسنة . ولكن المشاحنة أحسن !

ـــ كنا نتناقش فى الفلسفة .

ـــ ليكن !

ـــ أيهما تفضل : ديكرت أم اسبينوزا ؟

وشرب توموليبيس قدحه وقال :

ـــ الذى يهمنى هو الحيــاة . والحيــاة لا تنتهى على الأرض ، ما دمنا نستطيع التخريف . وأنا اقدم الاجلال إلى الآلهة الخالدة . والإنسان يكذب ، ولكنه يضحك . ويثبت ولكنه يشك . وغير المتوقع يخرج من جوف القياس . وهــذا جميل . ولم يزل فى الدنيا أناس يعرفون كيف يفتحون بكل مرح وكيف يغلقون صندوق المفاجئات التى تخبئها المفارقة . وهذا الذى تشربنه الآن أيتها السيدات وأنتن هادئات البــال وادعات هو نبيذماديرا ، الذى تنبت كرومه وتعصر على الجبال التى ترتفع عن سطح البحر بمقدار ١١٧ قامة ! فخذن حذركن وأنتن تشربنه ! فان هــذا الارتفــاع يدير الرءوس ! والمسيو بمبردا الكريم البارع يقدم لكن هــذه القامات المــائة وسبع عشرة مقابل أربع فرنكات وخمسين صلديا .

فقاطعه فامى من جديد :

ـــ يا توموليبيس ! آراؤك قانون . فأى هذين المؤلفين هو المفضل لديك .

فاندفع تومولييس فى حديث طويل مستفيض عن أنواع الخمور وطرق صنعها عند قدماء الإغريق وقدماء المصريين ! ومن الصعب كف تومولييس عن الاسترسال فى الكلام متى اندفع فيه . وما كان ليتوقف لولا أن حصانا سقط على الأرض فوق رصيف السين أمام النافذة فى تلك اللحظة . وكان هــذا الحصان فرسا تجر عربة نقل ثقيلة . وأمام بمبردا أرهقها العبء فأبت أن تتحرك . وتجمع الناس . وما كاد الحوذى الفظ يثور كأنما لحقته إهانة أمام الجمع المحتشــد ويسـب الفرس وينهال عليها بالسوط حتى خرت الدابة على الأرض ولم تنهض . والتفت أصحاب تومولييس إلى هذا المشهد الحزين ، وتنهدت فانتين وقالت :

ـــ يا للحصان المسكين !

وصاحت داليا :

ـــ ها هى فانتين شرعت ترثى لحال الخيول ! وهل يكترث أحد لمثل هذه الدابة ؟

وفى هذه اللحظة عقدت فافوريت ذراعيها فوق صدرها ومالت برأسها للخلف ونظرت إلى تومولييس بإمعان وقالت له:

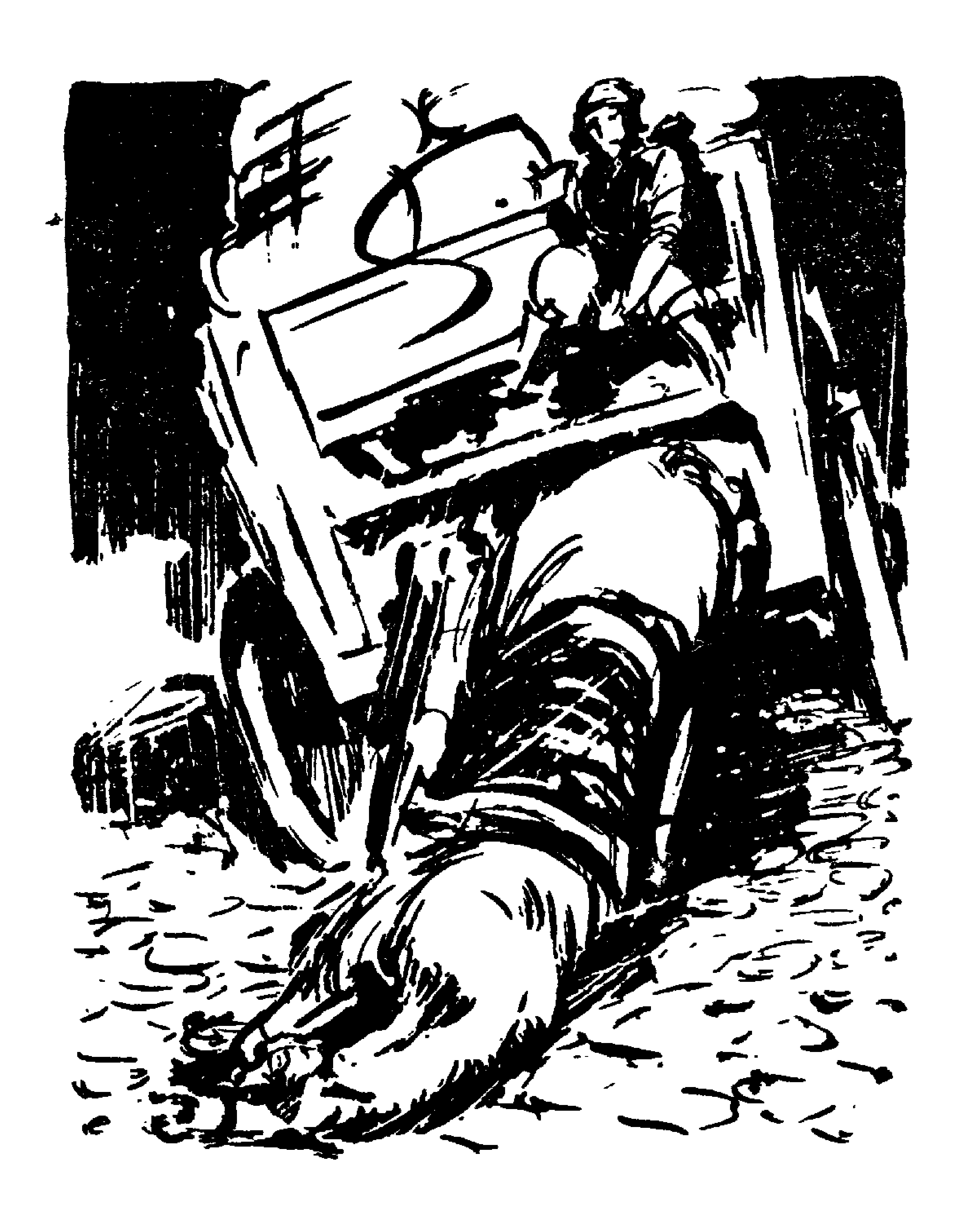
ـــ والآن ! ماذا عن المفاجأة ؟

فأجابها تومولييس :

ـــ بالضبط ! حان الوقت ! أيها السادة ! لقد حانت ساعةالمفاجأة لهذه السيدات. انتظرننا لحظة أيتها السيدات.

وقال بلاشفيل :

ـــ المفاجأة تبدأ بقبلة !



وكان هذا الحصان فرســا تجر عربة نقــل ثقيلة .
وأمام بمبردا أرهقها العبء فأبت أن تتحــرك ..

فقال توموليس :

— على الجبين !

وفعلا طبع كل منهم قبلة على جبين عشيقته ، ثم اتجه الشبان الأربعة فى صف واحد متلاحق إلى الباب ، وقد وضع كل منهم سبابته فوق فمه .

وصفقت فافوريت بيديها طربا لخروجهم وقالت :

— هذا شيء مسل وممتع ، منذ الآن !

وتمتمت فانتين :

— لا تطيلوا الغياب . فنحن فى انتظاركم !

الفصل التاسع

ختام مرح ليوم مرح

وما إن بقيت الفتيات الأربع وحدهن ، حتى اتكأت كل اثنتين منهن على حافة إحدى النافذتين ، ورحن يثرثرن معـــا ويتناقلن الحديث من بروز نافذة إلى بروز النافذة الأخرى .

ورأين الشبان يخرجون من حـــانة بمبردا متشـــابكى الأذرع ، والتفتوا إلى الوراء ولوحوا لهن ضاحكين ، ثم اختفوا وسط زحام يوم الأحد الذى يغمر كل أسبوع الشانزيليزيه . وصاحت فانتين :

ـــ لا تطيلوا الغياب !

وقالت زيفين :

ـــ ترى ماذا سيحضرون لنا ؟

فقالت داليا :

ـــ لا بد أنه سيكون شيئا جميلا .

وقالت فافوريت :

ـــ أما أنا فأريد أن يكون ما يحضرونه مصـــنوعا من الذهب .

ثم شغلن بالحركة على شاطىء الماء الذى كان يبدو لهن من بين أغصان الأشجار الكبيرة ، ووجـــدن فى ذلك تســـلية

كبيرة . فقد كانت هذه ساعة رحيل عربات البريد وعربات المسافرين . فكل سفريات الجنوب والغرب تقريبا كانت تمر فى ذلك الحين بالشانزيليزيه ، ومعظم هـذه العـربات تمر بالأرصفة المجاورة للسين وتخرج من ممر باسى . وما بين دقيقة وأخرى كانت مركبة ضخمة مطلية باللونين الأصـفر والأسود تمر مثقلة بالركاب والحقائب ، وتطل من نوافذها عشرات الرءوس ، وتعلو لها ضجة كبيرة ، وتشق طريقهـا تحت النافذتين بين زحام الناس ، ومن عجلاتها يتطاير الشرر وسط سحب الغبار الذى تثيره العجلات وسنابك الخيل . فكانت هذه الجلبة الزائلة والمناظر المتغيرة تفرح الفنيـات وتثير مرحهن وتسليهن .

وحدث ذات مرة أن وقفت إحدى هـذه العربات التى تتضح بصعوبة من بين أشجار الدردار لحظة تحت أنظارهن . ثم انطلقت بسرعة . فأدهش ذلك فانتين وقالت :

ــ هذا غريب ! كنت أظن عربات السفر لا تتوقف فى طريقها أبدا .

فهزت فافوريت كتفيها وقالت :

ــ فانتين هذه أمرها غريب ! فهى تندهش من أبسـط الأشياء . لنفرض أنى مسافر ، وقلت لسـائق الحـافلة : « سأسبقك وتقف لأخذى من فوق الرصيف أثناء مرورك » . وتمر الحافلة وترانى واقفة فتقف وتأخذنى . هذا شىء يحدث كل يوم . أنت لا تعرفين الحياة يا عزيزتى !

ومضى وقت على هـذه الوتيرة . وفجأة ندت عن فافوريت حركة كحركة من يصحو من نومه وقالت :

ـ وبعد ؟ اين المفاجاة التى وعدونا بها ؟
فقالت داليا :
ـ أى والله . على فكرة ! اين المفاجاة الشهيرة ؟
وقالت فانتين :
ـ لقد أطالوا الغياب !
وبينما كانت فانتين تتم تنهدها ، دخل الساقى الذى كان قد قدم الغداء ، وقد أمسك فى يده شيئا ما يشبه الخطاب :
فسألته فافوريت :
ـ ما هــذا ؟
فأجابها الساقى :
ـ هذه ورقة تركها أولئك السادة للسيدات .
ـ ولمــاذا لم تحضرها على الفور ؟
فقال الساقى :
ـ لأن هؤلاء السادة طلبوا بإلحاح عدم تسليمها إلا بعد مضى ساعة !
فاختطفت فافوريت الورقة من يدى الساقى . فاذا بها فعلا رسالة ، وصاحت :
ـ عجبا ! ليس بها عنوان ، ولكن هذا هو المكتوب على المظروف :
هذه هى المفاجاة !
وبسرعة فضت المظروف وقرات (فهى الوحيدة التى تعرف القراءة) :
يا حبيباتنا :
« اعلمن ان لنا أهــلا ووالدين . وإن كنتن لا تعرفن

الكثير عن معنى الوالدين . فهما ما يسمى فى القانون المدنى الصريح الآباء والأمهات. وهؤلاء الأشخاص يئنون ويتوجعون. هؤلاء المسنون ينادوننا كى نعود إليهم ، ويسمـوننا الأبناء الضالين . ويتمنون عودتنا ، ويعدوننا عند عودتنا بأن يذبحوا لنا العجول المسمنة . وعلينا طاعتهم لأننا أبناء بررة . ففى اللحظة التى تطالعن فيها هذه السطور تكون خمسة جياد قوية تجر عربتنا متجهة بنا إلى آبائنا وأمهاتنا فنحن إذن قد قررنا الرحيل . بل نحن فى هذه اللحظة قد رحلنا . فحافلة تولوز تبعدنا الآن عن شفا الهاوية . وهذه الهاوية هى أنتن ! يافاتناتنا الصغيرات ! وبذلك نعـود إلى أحضـان المجتمع والواجب والنظام ، بسرعة معدلها ثلاثة فراسخ فى الساعة. فمن مصلحة الوطن ان نترك المجون ونصبح — مثل النـاس جميعا — محافظين ، وأرباب عائلات ، ومستشارين محليين وموظفين عموميين . فعليكن أن تحترمن سلوكنا هذا ، لأننـا انكرنا ذواتنا وضـحينا بلذاتنا فى سـبيل الواجب القومى . وابكيننا قليلا ، ثم استبدلن بنـا غيرنا بسرعـة . وإذا مزق قلوبكن هذا الخطاب ، مزقنه !

« لقد اسعدتننا قرابة عامين ، ونحن ايضا اسعدناكن. فلا تحقدن علينا .

التوقيع

بلاشفيل

فامى

لستولييه

فيلكس تولومييس

حاشية : ثمن الغداء تم تسديده » .

ومـا إن فرغت فافوريت من اتـلاوة ، حتى تبـادلت الفتيات الأربع النظرات . وكانت فافوريت أول من قطعت هذا الصمت ، صائحة :

ــ آه ! انها على كل حال ملهاة حسنة !

وقالت زيفين :

ــ هذا شيء مضحك للغاية !

وعادت فافوريت تقول :

ــ لا بد أن بلاشفيل هو صاحب هذه الفكرة . وهـذا يجعلني أهيم به حبا . فما إن رحل حتى أحببتـه ! وهذه هي الحكاية !

فقالت داليا :

ــ لا . هذه فكرة توموليس . فذلك واضح تماما .

فقالت فافوريت :

ــ في هذه الحالة الموت لبلاشفيل ، وليعش تولومييس!

وهتفت داليا وزيفين :

ــ عاش تولومييس !

ثم انفجرت الثـلاثة ضـاحكات . وضـحكت فانتين كالأخريات . .

وبعد ساعة ، عندما عادت إلى حجرتها ، بكت . فقد كان هذا حبها الأول ، كما قلنا آنفا ، وكانت قد منحت نفسها لتولومييس كما لو كان زوجا . وكان للفتاة المسكينة طفلة .

الكتاب الرابع

الثقة تفضى إلى التســـــليم

الفصل الاول

أم تلتقى بأم أخــرى

كان فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، فى «فرمى» FARMEIL بالقــرب من باريس مطعم حقير لم يعــد له فى الوقت الحاضر وجود، وكان يدير هذا المطعم الحقير زوجان هم آل تنرديــيــه THENARDIER . وكان هذا المطعم الحقير يطل على حارة بولانجيه (الخباز) BOULANGER . وكانت تعلو بابه لافتة مثبتة بمسامير فى الحائط . وفوق هذه اللافتة — وهى فى الحقيقة لوح من الخشب — رسم يشبه رجلا يحمل على ظهره رجلا آخر ، وهذا الرجل المحمول على كتفيه علامات رتبة الجنرال المذهبة التى تشبه الفرشــاة ، ترصعها نجوم فضية ، وبقع حمراء ترمز إلى الدم ، أما سائر اللوحة فهو دخان لعله يمثل موقعة حربية . وتحت هــذه اللوحة عبارة بالخط الكبير : إلى جاويش (رقيب) ووترلو .

وما من شىء يثير الدهشة فى وقوف عربة ذات صندوق او عربة نقل على باب مطعم . ولكن لا شك فى ان العربة ، او على الأصح البقية الباقية من العــربة التى كانت تسـد الشارع أمام هذا المطعم الحقير المسمى « جاويش ووترلو » ذات مساء فى ربيع ســنة ١٨١٨ كانت جــديرة بلفت نظر اى رسام يمر من هناك .

فقد كانت هذه العربة أو حطامها عبارة عن مقدمة إحدى تلك العربات التى تستخدم للنقل الثقيل فى أقاليم الغابات ، وتستخدم فى نقل جذوع الأشجار . ولهذه المقدمة مقعد محطم، وعجلتان هائلتان ، ويكاد من يراها يحسبها بالأرجح عربة مدفع جبار ، وقد غطى كل جزء فيها بالوحل الجاف الذى صار لونه ضاربا إلى الصفرة . ومن فوق المقعد المحطم تتدلى سلسلة هائلة من الحديد جديرة أن تكون قيدا لجوليات الجبار . وكان هومير خليقا أن يقيد بها بوليفيم POLYPHEME أما شكسبير فكان خليقا أن يقيد بها كليبان CALIBAN .

وكان وسط السلسلة الهائلة المزدوجة يتدلى من المقعد بالقرب من الأرض ، وعلى هذه الثنية ، كأنما هى أرجوحة جلست فى ذلك المساء بنتان صغيرتان ، إحداهما عمرها نحو العامين والنصف ، وعمر الأخرى سنة ونصف ، وقد رقدت الصغرى بين ذراعى الكبرى . وهناك منديل كبير يربطهما معا فوق السلسلة بحيث لا يمكن أن تسقطا . . .

وكانت الطفلتان نظيفتى الملبس فى عناية واضحة ، فكأنهما وردتان ، وعيونهما لامعة ، وخدودهما ناضرة ضاحكة، ووجهاهما عموما فتنة للناظرين . وكان شعر إحداهما كستنائيا ، وشعر الأخرى بنيا . وكانت بالقرب من المكان أيكة تنفح عبيرها وينتشى به المارة فيحسبونه يفوح من هاتين الطفلتين اليانعتين النظيفتين وسط الركام والأقذار . وكان بطن ابنة العام والنصف عاريا للأنظار فى براءة الطفولة التى لم تتعلم بعد معنى الحياء . وكان الاثنتين من تحت هذه العربة

القبيحة القذرة الوحشية جالستان فى فوهة مغارة موحشة رهيبة . وعلى قيد خطوات منهما كانت أمهما جالسة على عتبة المطعم . وهى تؤرجح الطفلتين بهز السلسلة ، عن طريق خيط غليظ ربطته بها ، وهى ترقبهما بعينين فيهما شراسة المراة السوقية ممتزجة بحنان الأمومة . ومع كل اهتزازة كانت حلقات السلسلة الضخمة الصدئة يصدر عنها صوت صرير حاد أشبه بصرخة غضب ، فكانت الطفلتان تطربان له جدا . والشمس الغاربة تشارك فى هذا المرح . ولم يكن شىء أفتن للألباب من هذه الصدفة التى جعلت من سلسلة من أغـــلال العمالقة الأسطوريين أرجوحة طفلتين فى جمال الملائكة .

وكانت الأم وهى تؤرجح الصغيرتين تغنى لهما بصوت نشاز أغنية كانت شائعة فى ذلك الحين .

« لا بد من هذا . قال المقاتل .. » :

وكانت أغنيتها وتأمل الطفلتين يمنعانها من سماع أو رؤية ما يدور فى الشـــارع . ولكن شخصـــا كان قد اقترب منها وهى تبدأ المقطع الأول من أغنيتها ، وعلى حين غرة منها سمعت صوتا قريبا جدا من أذنها يقول :

ـــ ما أجمل طفلتيك يا سيدتى !

فأجابتها الأم متممة مطلع الأغنية :

« للحسناء الرقيقة الحنون ايموجين IMOGINE » .

ثم استدارت نحوها . فاذا أمامها امرأة ، على بعـــد

خطوات منها . وكان مع هذه المرأة أيضـــا طفلة تحملها بين ذراعيها . وتحمل ايضا حقيبة تبدو ثقيلة جدا .

وكانت طفلة هذه المرأة من أبدع الكائنات التى يمكن أن تقع عليها العين. كانت طفلة يتراوح عمرها بين سنتين وثلاث ســنوات . وكان من الممكن أن تلعب مع الطفلتين الأخريين وتباريهما فى الحسن . وثيابها من النســـيج الرقيق الفاخر ، وعلى راسها قلنسوة مزينة بشرائط . وذيل ثوبهـــا المرفوع يكشف عن فخذين بيضاوين لحيمين. وبشرتها وردية تنبىء عن تمام الصحة والعافية . وخداها تفاحتان تغريان المرء بالقضم! ولا يمكن الحكم على عينيها إلا بانهما حتما واســـعتان جـــدا وأهدابهما رائعة . فقد كانت نائمة .

كانت الطفلة نائمة نوم الطمانينة المطلقة التى تعرفهـــا هذه السن . فذراعا الأم مهاد الأمان والحنان ، وفى أحضان الأم ينام الأطفال بعمق .

أما الأم فكان مظهرها مختلفا عن مظهر الطفلة . وكان مرآها ينبىء عن الفقـــر والحزن . فهى مرتدية بزة عاملة فى المدينة تصبو إلى أن ترتد فلاحة . وكانت شابة . أتراها كانت جميلة ؟ ربما ! ولكنها فى هذه البزة لم يكن جمالها باديا للعيان. وشعرها ـــ الذى ظهرت منه خصلة شقراء ـــ يبدو أنه غزير جدا ، ولكنه كان متواريا بصرامة تحت طاقية قبيحة الشكل ، ضيقة ، ومعقودة تحت ذقنها . والضحك يبرز جمال الأسنان إن كانت هذه الأسنان جميلة ، ولكن فمها كان مطبقا ، ولا يفتر عن ضحك أو ابتسام. وعيناها يبدو انهما لم يرقأ لهما دمع منذ

زمن طويل جدا . وكانت شاحبة البشرة ، يبدو عليها الاعياء ، بل كانت مريضة بعض الشيء . تنظر إلى ابنتهـــا النائمة في أحضانها تلك النظرة الخاصة التي ترنو بها الأم التي أطعمت طفلها . وكان منديل أزرق كبير كالذي يتمخط فيه المرضى قـــد طوى وتدلى لكي يحجب قدها فلا تبـــدو قسماته . ويداها مسفوعتان وتعلوهما اثار تدل على الافـــراط في اســـتخدام الابرة ، وثوبها عبارة عن سترة بنية اللـــون من الصـــوف الخشن ، وتحتها ثوب من القطن ، وفي قدميهـــا حذاء ضخم غليظ . وكانت هذه هي فانتين !

أجل هذه فانتين ، وإن كان من العسير التعرف عليها . ولكنك إذا ما تفحصتها عن كثب وجدت آثار جمالها ، ولكن تجميدة حزينة ، كأنما هي شروع في سخرية ، كانت تغضن خـــدها الأيمن . أما زينتهـــا التي كانت مزيجا من الموسلين والعمامات الأنيقة والقبعات وقد نسقت كلها لتنبيء عن المرح والشباب ، وكأنما تنبعث من حركاتهـــا الرشـــيقة موسيقى للعيون ، ومن أعطافهـــا وأردانها يفوح عبير الشـــباب كأنه الليلك . . كل هـــذا تبخر وتلاشى ، كمـــا يتلاشى الصـــقيع اللامع الذي يحسبه المرء عند بزوغ النهار الماسات ، فاذا به متى اشتدت الحرارة يذوب ، ويبقى الغصن من تحته عاريا اسود أجرد .

وكانت قد مرت شهور عشرة منذ حدوث تلك « الملهـــاة المتقنة الصنع » .

فما الذي جرى في هـــذه الشهور العشرة ؟ هـــذا شيء نستطيع أن نحدسه .

بعد الهجر حلت الضائقة . وغابت تمـــاما عن أنظـــار فانتين فى الحال فافوريت وزيفين وداليا . فانقطاع الصلة مع الرجال ، قد قطع أيضـــا الصـــلة بين النســـاء . بحيث كن يدهشن لو قيل لهن بعد خمسة عشر يوما إنهن كن صديقات . فالصداقة بينهن لم يعد لوجودها سبب ، وقـــد اســـتنفدت غرضها . وبقيت فانتين وحيدة ، وبعـــد رحيل والد طفلتهـــا — ومثل هذه القطيعة لا يمكن للأسف الشديد أن تتجدد بعدها العلاقة ! — ألفت نفسها معزولة عن الناس تماما ، وقد قلت لديها عادة العمل ، وحلت محلها الرغبـــة فى المتعة . وقـــد استدرجتها علاقتها بتوموليبيس إلى ازدراء الحرفـــة الحقيرة التى كانت تعرفها . ولم يعد لها أى مورد . وكانت لا تكاد تعرف القراءة . أما الكتابة فلا معرفة لها بها أصلا . وكل ما هنالك انهم علموها فى طفولتها كيف توقع باسمها . وذهبت إلى كاتب عمومى وجعلته يسطر لها رسالة إلى توموليبيس ، ثم أعقبتها برسالة أخرى ، ثم بثالثة . ولم يتكرم توموليبيس بالرد على اى منها . وذات يوم ســـمعت فانتين فضـــوليات يقلن وهن ينظرن إلى ابنتها :

— وهل ياخذ أحد مثيلات هذه الطفلة ماخذ الجد ؟ انهن لا يقابلن إلا بهز الأكتاف !

وعندئذ تذكرت توموليبيس وكيف كان يهز كتفيه استهانة بابنته ، ولم يكن يأخذها ابدا مأخذ الجد . وامتلأ قلبها بغضا وضغينة على هذا الرجل . ولكن ماذا عساها تصنع ؟ انها لم تعد تعرف إلى من تتوجه . لقد ارتكبت خطأ ، ولكن اعمـــاق طبيعتها كانت كلها حياء وفضيلة . واشعرت شعورا غامضـــا

بأنها على أعتاب التردى فى الفاقة ، بل وما هو أسوأ من الفاقة، وكان لا بد لها من الشجاعة ، وقد تصلبت . وراودتها فكرة العودة إلى مسقط رأسها فى بلدة « م » . فلعل أحدا هنـــاك يتعرف عليها أو يتذكرها ويتيح لها عملا . هذا ممكن . ولكن لا بد لها قبل هذا من إخفاء خطيئتها . وأدركت أن ذلك معناه أن تتكبد آلام فراق ثان أقسى على نفسها من الفراق الأول . وانقبض قلبها ، ولكنها اتخذت قرارها . فقد كان لدى فانتين — كما سنرى — ما يمكن أن نسميه شجاعة الحياة . وكانت من قبل قد تخلت عن زخارف زينتها وأبهتها ، ولبست القماش الخشن ، وأعادت تفصيل كل ما كان لديها من ملابس حريرية وبهارج وأشرطة ومخرمات وصنعت منها ثيابا لابنتهـــا التى كانت البهجة والزهو الوحيدين الباقيان لها . كانت تقدسها. وباعت كل ما كان لديها وحصلت من ذلك على مائتى فرنك . دفعت منها ديونها الصغيرة ، ولم يتبق لها إلا حوالى ثمانين فرنكا . وفى سن الثانية والعشرين ، ذات صباح جميل يوم من أيام الربيع غادرت باريس ، حاملة طفلتها على ظهرها . ولو رآهما أحد وهما تمران به لأخذته بهما الشفقة . فهذه المرأة ليس لها فى الدنيا إلا هذه الطفلة ، وهذه الطفلة ليس لها فى الدنيا إلا هـــذه الأم . وأرضعت فانتين ابنتهـــا ، فأتعب ذلك صدرها ، وجعلت تسعل قليلا .

ولن تتاح لنا بعد الآن فرصـــة للحديث عن المســـيو توموليبس ، وبحسبنا أن نقول إنه بعد هذا التاريخ بعشرين عاما — تحت حكم لوى فيليب LOUIS-PHILIPPE صار موثقا كبيرا فى الأقاليم، ذا نفوذ وثروة، وناخبا حكيما ومحلفا فى

المحكمة بالغ القسوة ، وإن كان قد ظل أخا ملذات وشهوات.

وحوالى منتصف النهار ، بعد أن كانت تبحث عن الراحة قد استقلت بين وقت وآخر عربات عامة كانت يومئذ تستخدم فى ارباض باريس لقاء أربع صولديات للفرسخ الواحد ،الفت فانتين نفسها فى مونفرمى MONTFERMEIL فى حارة بولنجيه (الخباز) .

وفيما هى مارة أمام مطعم ونزل تنرديبه ، بهرها منظـــر الطفلتين المتارجحتين على تلك السلسلة ، ووقفت تنظر إلى هذا المشهد البهيج . فحتى للبؤساء توجد مشاهد ساحرة . وكانت هاتان الطفلتان مشهدا ساحرا لهذه الأم .

وراحت ترمقهما وقد تحركت مشاعرها . فرؤية الملائكة إيذان بوجود الفردوس . وخالت انها رات مكتوبا فوق هــذا النزل عبارة : «هنا» التى خطتها يد العناية الإلهية . فلا شك عندها فى أن هاتين الصغيرتين كانتا سعيدتين . وراحت تنظر إليهما باعجاب ، وقد جاشت نفسها بالحنـــان ، ولما رات الأم تلتقط انفاسها فيما بين بيتين من الأغنية لم تتمالك نفسها من أن تقول لها الكلمة التى ذكرناها آنفا :

— ما اجمل طفلتيك هاتين يا سيدتى !

واشـــد الناس شراســـة تلين عريكتهم إذا ما داعبت ولاطفت صغارهم .

ورفعت الأم راسها وشكرتها ، واجلست عابرة السبيل



وراحت ترمقهما وقد تحركت مشاعرها .
فرؤية الملائكة ايذان بوجود الفردوس ..

هذه على دكة الباب ، اما هى فكانت جالسة فــوق العتبة . وتجانبت المراتان الحديث .

قالت أم الطفلتين :

ــ اسمى مدام تنردييه . وانا وزوجى ندير هذا النزل .

ثم واصلت اغنيتها ، فقالت من بين اسنانها :

« لا بد من هذا ، فانا فارس »

« ولذا فانى راحل إلى فلسطين »

وكانت مدام تنردييه هذه امراة صهباء ، طويلة ، لحيمة ، عريضة العظام . فهى نموذج امراة الجندى . ومن العجيب انها كانت مدمنة قراءة اقاصيص شعبية . وهذا نوع طبيعى من القراءة لصاحبة مطعم حقير ، يترك فى نفسها انطباعاته . وكانت ما تزال شـــابة ، لم تكد تبلغ الثلاثين . ولو أن هذه المراة المقعية انتصبت واقفة ، لكانت قامتها العملاقة وقوتها البادية التى تشبه قامة المصارعين المتجولين ، خليقة أن تروع مسافرتنا المسكينة وتقلق طمأنينتها وتســـلبها الثقة ، فتتبخر الأحداث التى سوف نرويها ها هنا . ولكن القدر تغير اتجاهه بحكم الصدفة التى شاءت لهذه المراة أن تكون الآن جالســـة لا واقفة .

وروت المسافرة التعسة قصتها ، بشىء من التحوير .

قالت انها كانت عاملة ، وإن زوجها مات عنها ، وإنهـــا لم تجد لها عملا فى باريس ، ولذا فهى ذاهبة للبحث عن عمل فى مكان آخر ، فى إقليمها الأصلى . وقالت أيضا انها غادرت باريس هذا الصباح ، سيراً على الاقدام ، ولأنها تحمل طفلتها

شعرت بالتعب ، وقابلت العربة الذاهبة إلى فلمومبل VILLEMOMBLE فركبتها وجاءت من فيلمومبل إلى مونفرمى سيرا على قدميها ، وأن الصغيرة مشت قليلا ، ولكن ليس لمسافة طويلة ، فهى صغيرة جدا ، ولذا اضطرت لحملها ، وها هى الجوهرة الجميلة نائمة .

ولما قالت هذه الكلمة طبعت على وجه الصغيرة قبلة حارة ايقظتها . ففتحت الطفلة عينيها ، فاذا عينان واسعتان زرقاوان مثل عينى الأم . ولكن إلام كانت تنظر ؟ لا شىء ، وكل شىء ! بتلك النظرة الجادة ، التى قد تكون صارمة أحيانا ، التى يتميز بها الأطفال الصغار ، وهى سر من أسرار براءتهم المضيئة أمام غسق فضائلنا . حتى لكأن هؤلاء الأطفال الصغار يشعرون بأنهم ملائكة أطهار وبأننا بشر .. ثم أخذت الطفلة تضحك ، ومع أن أمها حاولت استبقاءها إلا انها نزلت إلى الأرض مدفوعة بطاقة الكائن الصغير الجارفة التى ترغب فى الجرى . وفجاة لمحت الطفلتين على أرجوحتهما ، فوقفت مبهوتة ، واخرجت لسانها . وهى عندها علامة إعجاب .

واسرعت الأم تنردييه تفك رباط طفلتيها ، وانزلتهما من الأرجوحة وقالت :

ــ العبن انتن الثلاثة .

وفى هذه المرحلة من العمر يحدث التقارب على الفور ، فبعد دقيقة واحدة كانت الطفلتان تنردييه تلعبان مع القادمة الجديدة ، وتتسابق ثلاثتهن فى إحداث ثقوب فى الأرض بأصابعهن الرخصة فى استمتاع عظيم . وكانت هذه القادمة

الجديدة عظيمة المرح ، وطيبة الأم متجلية فى بهجة الطفلة . ووجدت على الأرض قطعـــة صغيرة من الخشب فاتخذتهـــا جاروفا حفرت به حفرة تتسع لذبابة !

وواصلت المرأتان تجاذب الحديث :

— ما اسم صغيرتك ؟

— كوزيت COSETTE .

وكان هذا الاسم تحويرا للتدليل لاسمها الأصـــلى وهو إيفرازى EUPHRASIE ولكن ذلك الاسم لم يكن يروق الأم ، لذا اطلقت عليها اسم كوزيت ، بحذاقة ولباقة بنات الشعب وذوقهن حين يحـولن اسم جوزيفـــا JOSEFA إلى ببيتـــا PEPITA وفرنسواز إلى سييت SILLETTE بل انى أعرف جدة حورت اسم حفيدهـــا من تيودور THEODORE بقدرة قادر إلى نيون GNON !

— وكم عمرها ؟

— فى عامها الثالث .

— مثل عمر ابنتى الكبرى .

وفى هذه الأثناء كانت الصغيرات الثلاث متجمعـــات فى اوضاع تدل على القلق العميق والغبطة فى الوقت نفسه ، فقد حدث شىء خارق : برزت من جوف الأرض دودة غليظـــة من دود الطين ، فخفن ، ولكنهن كن فى حالة نشوة فى الوقت نفسه .

وتلامست جباههن المشرقـــة ، لكأنهن ثلاثة رءوس من حولها هالة . وصاحت الأم تنرديبه حين رات هذا المنظر :

— الأطفال سرعان ما يتعارفون ! ها هن يكاد يقسم من يراهن انهن ثلاث أخوات !

فكانت هذه الكلمة الشرارة التى لعل الام الأخرى كانت تنتظرها ، فتناولت يد مدام تنردييه ، وحدقت فى وجهها بنظرة متوسلة وقالت :

— هل لك أن تحتفظي لى بابنتي ؟

فندت عن مدام تنردييه حركة تنبيء عن الدهشة من غير ان تعنى قبولا أو رفضا .

وواصلت أم كوزيت كلامها :

— المسألة كما ترين انى لا استطيع ان آخذ معى ابنتى إلى بلدى . فالعمل لا يسمح بهذا . والمرأة التى لديها طفل لا تجد من يلحقها بعمل . والناس غريبو الأطوار فى ذلك الإقليم . والله الكريم العليم هو الذى جعلنى امر الآن أمام نزلك هذا . ولما رايتك وابنتيك بكل هذا الجمال والنظافة والنعمة ، اضطربت نفسى . وقلت فى سريرتى : ها هى ذى أم طيبة صالحة ! والأمر كما قلت انت : سيكن ثلاث أخوات . ثم اننى لن ألبث طويلا حتى أعود . فهلا احتفظت لى بابنتى ؟

فقالت مدام تنردييه :

— سنرى . . . ونتدبر الأمر ، إن كان ممكنا .

— ساعطيك ستة فرنكات فى الشهر .

وعندئذ صاح صوت رجل من داخل المطعم الحقير :

— لا اقل من سبعة فرنكات . وستة اشهر تدفع مقدما .

وقالت مدام تنردييه :

ــ ستة فى سبعة تساوى اثنين واربعين .

فقالت الأم :

ــ سأدفعها !

فقال صوت الرجل :

ــ وخمسة عشر فرنكا للمصروفات والنفقات المبدئية .

وقالت زوجته :

ــ المجموع سبعة وخمسون فرنكا .

وراحت تدندن من جديد :

« شىء لابد منه . قال المحارب . . »

وقالت الأم :

ــ سأدفعهـــا الآن ، معى ثمانون فرنكا . وسيبقى لى ما يكفينى للذهاب إلى بلدى . وسأذهب سيرا على القدمين . . وهناك سأكسب مالا ، ومتى توفر لى منـــه شىء عدت لأخذ حبيبتى .

فقال صوت الرجل من الداخل :

ــ هل للصغيرة ما يكفى من الثياب والحوائج ؟

وقالت مدام تنردييه :

ــ هذا زوجى .

ــ طبعا لديها جهاز كامل، هذهاللؤلؤة العزيزةالمسكينة . لقد ادركت منذ البداية انه زوجك . وجهازها هذا من أحسن ما يكون . جهاز غير معقول ، كل شىء فيه بالدستة ، واثوابها من الحرير مثل بنات الطبقة الراقية . وجهازها هنا فى حقيبتى .

فقال صوت الرجل :

ــ يجب تسليمه !

فقالت الأم :

ــ طبعــا سأسلمه ! أتظنان أنى يمكن أن أترك ابنتى مارية ؟

فظهر وجه رب المطعم عند الباب ، وقال :

ــ هذا حسن !

وتمت الصفقة . وقضت الأم الليلة فى النزل ، وسلمت نقودها ، وتركت طفلتها ، وعقدت رباط حقيبتهــا التى كانت منتفخة بجهاز الصغيرة وصـــارت الآن شبه خاوية ، ورحلت منذ الصباح الباكر ، وفى نيتها أن تعود سريعا . ومثل هــذا الفراق يتم بسرعة ، ولكنه محفوف دائما بالأسى واليأس .

وقابلت إحدى جارات آل تنردييه تلك الأم وهى راحلة ، وعادت تقول :

ــ لقد رأيت امرأة تبكى فى الشـارع ، فتمزق لها قلبى .

ولما رحلت والدة كزويت قال الرجل لامرأته :

ــ هذا المبلغ سيفى بالكمبيالة المستحقة غدا وقيمتهــا ١١٠ فرنكات . فقد كانت تنقصنى خمسون فرنكا . أتدرين أن المحضر كان ســيحضر غــدا ؟ لقــد صـــنعت معجزة أنت والطفلتان ...

فقالت المرأة

ــ من غير قصد ...

الفصل الثانى

صورة تخطيطية لشخصيتين مشبوهتين

لقد كانت الفأرة المقتنصة هزيلة جدا ، ولكن القط ابتهج بحصوله ولو على فأرة هزيلة .

ومن هما الزوجان تنردييه ؟

لنقل الآن عنهما كلمة وجيزة ، ثم نتم الصورة فيما بعد .

فهذان الشخصان ينتميان إلى تلك الفئة الهجين التى تتكون من أناس أجلاف ارتقوا ومن أناس أذكياء انحدروا . فهى فئة تكاد تكون طبقة تقع فى المنطقة الوسطى بين الطبقة المتوسطة والطبقة الدنيا ، وتجتمع لها مساوىء ورذائل هذه الطبقة وتلك معا ، من غير أن تكون لها شهامة العامل أو الصانع ولا أمانه البرجوازى .

كانت طبيعتهما من تلك الطبائع القزمة ، التى إذا اتقدت غرائزها غدت مخلوقات متوحشة مسعورة . ففى تلك المرأة فظاظة ووحشية ، وفى ذلك الرجل خسة ونذالة . وكلاهما كانا يجدان لذة فى التوغل فى الشر ، ويحسبان ذلك سبيل التقدم ، ففى الناس أنماط بشرية لا تطيق النور ، وتتقهقر دوما نحو دياجير الظلمات ، وينكصون على أعقابهم وهم يخالون أنهم ماضون إلى الأمام قدما . ويستخدمون ما يتجمع لهم من الخبرات فى زيادة تشويه نفوسهم ، وصبغ ضمائرهم

بمزيد من السواد . وكان هذا الرجل وكانت هـــذه المرأة من ذلك القبيل من النفوس الممسوخة .

وكان الرجل تنردييه على الخصـــوص محيرا لعلماء الفراسة . ومن الرجـــال من يكفى أن يقع بصرك عليهم لأول وهلة كى تتوجس منهم شرا وتنفر منهم ، لأن المرء يشعر انهم ينضحون بالظلمة من كيانهم كله . فهم مصدر قلق إذا غابوا ، ومصدر خطر إذا حضروا . ففيهم عنصر مجهول . ولا يستطيع المرء أن يضمن ماذا فعلـوا سابقا ولا ما عســـاهم يفعلـــون غدا . وما يبدو فى نظراتهم من العتمة يفضـــح سرائرهم . ويكفى أن يسمعهم المـــرء يقولون كلمة أو أن يراهم يومئون بإشارة حتى يحس أن فى أعماقهم أسرارا خفية تكتنف ماضيهم وتحف بمستقبلهم .

وتنردييه هذا كان جنديا فيما مضى، ويقول إنه كان رقيبا (جاويشا) . ولعله خاض معارك حملة سنة ١٨١٥ ، ولعله أيضـــا أبـــدى فيهـــا شـــجاعة وبســـالة ، فيما يبـــدو . وسنرى فيما بعد ماذا كان من أمره فيها ، ولافتة حانته كانت إشارة إلى موقف من مواقفه فى الحرب ، وهو الذى رسمها ، لأنه كان يعرف طرفا من كل صنعة ، ولكن بلا إتقان .

وكانت هذه هى الفترة التى شاعت فيها حكاية كلاسيكية عن فتاة كان اسمها كليلى CLELIE ثم صار اسمها لودويسكا LODOISKA ولكنها من اصل نبيل ، إلا أنهـــا انحدرت إلى مستوى الســـوقة رويدا رويدا ، فانحدرت وبعـــد أن كانت

الآنسة دي سكيديرى SCUDERY صـــارت مـدام بورنون — ملارم BOURNON-MALARM ، ومن مدام دى لافاييت LAFAYETTE صــــــارت مـــــــدام برتلمى آدو BARTHELAMY-HADOT . وهذه القصــــة الشـــعبية الهبت مشـــاعر البوابات العاشـــقات فى باريس ، بل واجتاحت ضواحيها وأرباضها ايضا . وكانت مدام تنرديبه من الذكاء بحيث تقرأ هذا النوع من الكتب . وكانت غذاء روحها. وفى بحارها أغرقت ما كان لهـا من عقل ، وقد اضفى هـذا عليها منذ يفاعتها ، بل وبعد ذلك أيضا بقليل سيما الشرود فى الفكر بالقياس إلى زوجها الذى كان وغدا فيـه لؤم ومكر ، ووبشا وصل فى تعليمه إلى المرحلة الأولية ، فهو فظ غليظ وداهية خبيث فى الوقت نفسه، وفيه مع هذا نوع من العاطفية المبتذلة نماها بقراءة مبتذلة ، وفيما يتصل بكل أمور الجنس — كما كان يقول — كان مغوارا غيه بهيمية سافرة غير مشوبة. وكانت زوجته أصغر منه بنحو اثنى عشر عاما أو خمسة عشر عاما وعندما بدأت بوادر الشيب تدب إلى شعرها ، تقلصت شاعريتها أو رومانسيتها السوقية ، وزادت نزعة الشر لديها وقد تذوقت من قبل تلك الأقاصيص البلهاء . والقراءات المبتذلة لا تترك قارئها بلا عقاب ، لأنها تشوه نفسيته . ومن آثار هذه القراءات ما اختارته لبنتيها من الأسماء . فالكبرى اسمها إيونين EPONINE والصغرى المسكينة كان لا بد لهـا أن تحمل اسم جلنار GULNARE ، ولولا لطف القدر لأوحت إلى أمها قراءة قصة لديكراى — ديمينيل DUCRAY-DUMINIL أن تسميها أزلما AZELMA !

ولكن ليس كل ما يتعلق بأسماء هـــذه الفترة مضحكا ، وهى فترة تستحق أن تسمى فترة فوضى أسماء العماد . فإلى جانب التأثير العاطفى الشعبى ، لتلك الأقاصيص المبتذلة ، كان هناك أيضا اعراض الظواهر الاجتماعية . فلا غرابـــة فى أن نجد اليوم صبيا يرعى الأبقـــار أو صبيى كلاف اسمه ارتير ARTHUR او الفريد ، او الفونس. وأن نرى فيكونتا — إن كان قد بقى فيكونتات فى زماننا — اسمه توما أو بيير أو جاك . وهذا خلط يطلق أســـماء النبـــلاء على ابناء العامة ؛ ويلصق أسماء الريفيين بأبناء الطبقة العليا . وهـــذا كله من تأثير المساواة . فرياح المبادىء الجديدة قد هبت فى هذا المجال كما هبت على كل مكان وكل شىء . ووراء هذا كله لا يوجد إلا سبب واحد عظيم وعميق ، وهذا الســـبب هو الثـــورة الفرنسية .

الفصل الثالث

القبـــرة

لا يكفى أن يكون المرء شريرا كى يزدهر . فالمطعم الحقير كانت حالته سيئة وتجارته خاسرة .

وبفضل السبعة والخمسين فرنكا التى دفعتها المسافرة ، تمكن تيرديه من تجنب الإفلاس والوفـــاء بديونه الممهورة بتوقيعه . ولكن فى الشهر التالى احتاجوا أيضـــا إلى نقود . فحملت المرأة « جهـــاز » كوزيت إلى باريس ورهنته فى مكتب الرهون مقابل مبلغ ستين فرنكا . وبمجرد إنفاق هـــذا المبلغ كان الزوجان تيرديه قد اعتادا الا يريا فى البنت الصـــغيرة إلا طفلة يحتفظان بها على سبيل الصـــدقة ، وعاملاها على هذا الأساس . ولما لم يعد هناك جهاز ثياب كوزيت ، فقـــد ألبساها الثياب القديمة التى رثت على جســـدى طفلتيهما ، فغدت أسمالا بالية . وكان طعـــام هـــذه الصغيرة من بقايا طعام رواد المطعم ، فهو طعام أفضل قليلا مما يأكله الكلب ، وأسوأ قليلا مما يأكله القط . وكانت كوزيت تأكل مع الكلب والقط تحت المائدة من صحفة من الخشب مماثلة لصحفتيهما .

أما أمها ــ فانتين ــ فانها ، كما سنرى فيمـــا بعـــد ، استقرت فى مدينة « م » (مسقط رأسها) . وكانت تكتب ، أو بالأصح تستكتب كل شهر الكاتب العمومى رسالة تسأل فيها

عن اخبار طفلتها . وكان آل تنرديبه يردون عليها دائما بأن كوزيت فى أحسن حال .

ولما انتهت الشهور الستة أرسلت الأم سبعة فرنكات لنفقات الشهر السابع ، واستمرت على هذا الحال محافظة بدقة على إرسال النقود شهرا وراء شهر . ولم تكد السنة تنقضى حتى قال تنردييه فى تذمر وجشع :

— ما هــذا الذى ترسله إلينا ؟ أتظنهـا نعمة جزيلة فرنكاتها السبعة هذه ؟ ما تظننا نصنع بها ؟

وكتب إلى فانتين يطالب بوجوب زيادة النفقة الشهرية إلى اثنى عشر فرنكا . ولما كانت رسائله قد أدخلت فى روع الأم أن ابنتها بخير حال وأحسن مآل وتعيش سعيدة منعمة ، تحاملت على نفسها وأرسلت الفرنكات الاثنى عشر .

وبعض الطبائع لا تستطيع أن تحب من جانب من غير أن تكره من جانب آخر . فالأم تنردييه كانت تحب ابنتيها هى حبا شديدا ، مما جعلها تمقت الطفلة الغريبة . ومن المحزن أن نتصور كيف يمكن لحب الأمومة — عند هذه الأم ومثيلاتها — أن تكون له جوانب شريرة . فمهما كان الموضع الذى تحتله كوزيت فى بيتها ضئيلا ، فهى تراه منتزعا من ابنتيهـا ، حتى أنها كانت تحس كأن هذه الصغيرة تنتقص من الهواء الذى تتنفسه ابنتاها . فتلك المرأة — مثل كثيرات على شاكلتها — كانت لديهـا كميـة محددة من الملاطفات وكميـة محددة من الضربات واللعنات ، عليهـا أن تنفقهـا فى كل يوم . فلو لم

تكن لديها كوزيت المسكينة الغريبـــة لكانت ابنتاها ـــ رغم ما تكنه لهما من حب العبـــادة ـــ هما اللتان تنصب عليهمـــا النعمة والنقمة معا . ولكن وجود هذه الغريبة أفادهما لأنها اختصت من دونهما بالضربـــات واللعنات ، فلم يبق للأختين من لدن أمهما إلا الملاطفة والمداعبة والتدليل. فلم تكن كوزيت تأتى بحركة إلا وانصبت على رأســـها عاصفة من العقوبات العنيفة التى لا تستحقها. فالمخلوقة الصغيرة الضعيفة العذبة المعذبة لم تكن تدرى شيئا عن العالم ولا عن الله ، ولكنهـــا تجد نفسها دوما فريسة عقاب أو تقريع أو ســـباب ، وهى ترى إلى جانبها كائنين صغيرين مثلها تعيشان باستمرار فى شعاع من الفجر وردى اللون !

كانت مدام تنردييه شريرة مع كوزيت . وكذلك صارت ابنتاها إيونين وأزلما شريرتين أيضا مع كوزيت . فالأطفال فى هذه السن لا يكونون إلا نسخا طبق الأصـــل من الأم ، ولكن فى حجم مصغر ، وهذا كل الفرق .

ومضى عام ، ثم عام آخر . . .

وكان القول يتردد على الألسنة فى القرية :

ـــ آل تنردييه هؤلاء قوم فيهم شهامة وأريحية . فهم ليســـوا أغنياء ، إلا أنهم يربون طفلة فقيرة هجرتها أمهـــا وتركتها عندهم !

فقد كانوا يحسبون كوزيت صارت نسيا منسيا عنـــد أمها .

ومع هذا كان تنرديية قد عرف — لا ندرى من أى مصدر غامض — أن الطفلة ربما كانت غير شرعية ، وأن الأم لهذا السبب لا تستطيع الاعتراف بهـا . ولذا رفع الإتاوة إلى خمسة عشر فرنكا ، وقال فى تبرير ذلك إن الصغيرة « كبرت » وصارت وجبتها أكبر من ذى قبل ، وهدد بطردها أو إرسالها إليها . وأخذ يصيح :

— يجب ألا تثير غضبى ، وإلا ألقيت إليها بطفلتها كالقنبلة وسط ستار التكتم الذى تحيط به نفسها هناك . لا بد لى من « علاوة » .

وأخذت الأم تدفع الخمسة عشر فرنكا كل شهر .

وسنة فى إثر سنة كانت البنت تكبر ، وتكبر معها تعاستها أيضا .

وكانت كوزيت فى السنتين الأوليين كبش (أو نعجة) الفداء للشقيقتين فى كل أنواع العذاب والجوع والمذلة ، ولكنها ما إن كبرت قليلا ، أى ناهزت السنوات الخمس من عمرها ، حتى صارت خادمة المحل .

وقد يقول القارىء إن هذه السن غير معقولة للخدمة . وهذا للأسف صحيح ! ولكن الشقاء الاجتماعى يبدأ فى كل سن . ألم نقرأ منذ قليل عن قضية المدعو ديمولار DUMOLLARD الذى تربى يتيما وصار قاطع طريق ، وتقول الوثائق الرسمية إنه منذ الخامسة من عمره « كان وحيدا فى هذا العالم تماما وعمل لكى يعيش ، وسرق » .

كانت كوزيت فى هذه السن الغضـــة تكلف بقضـــاء الحاجات من الخارج ، وكنس الحجرات ، والفناء ، والشارع، وغسل الأوانى ، بل وحمل بعض الأثقال . وكان الزوجان تنردييه يظنان ان لهما الحق كل الحق فى هـــذا ما دامت الأم لم تزل مقيمة فى « م » ، وبدأت تقصر فى دفع الإتاوة أحيانا ، وكان هذا التقصير يطول أحيانا بضعة شهور .

ولو ان هـــذه الأم عـــادت إلى مونفرمى بعـــد تلك السنوات الثلاث ، لما تسنى لها أن تعرف ابنتها . فكوزيت التى كانت آية فى الجمال والنضرة عند قدومها إلى هذه الدار، صارت الآن هزيلة شاحبة . وعليها دائما سيما القلق ، مما جعل الزوجين تنردييه يقولان عنها إنها ماكرة لئيمة !

وكان الجور قد جعلها شكســـة ، وكانت التعاســـة والمسغبة قد جعلتاها قبيحة . فلم يبق لها من آيات جمالها السابق إلا عيناها الجميلتان ، اللتان صـــارتا مؤلمتين ، لأن اتساعهما بهذه الصورة يتيح للناظر إليهما أن يطالع فيهما كمية اكبر من الحزن ...

وكان شيئا يدعو للأسى ويثير النفس أن ترى فى الشتاء هذه الطفلة المسكينة ، التى لم تتم بعد عامهـــا السادس ، ترتجف تحت أســـمالها العتيقة البالية من التيل الحـــافل بالثقوب ، وهى منصرفة إلى كنس الشارع قبل بزوغ النهار بمكنسة ضخمة فى يديهـــا الصـــغيرتين الحمراوين ، ودمعة تترقرق فى عينيها الواسعتين .



كانت كوزيت فى هذه السن الغضة تكلف بقضاء الحاجات من الخارج ، وكنس الحجرات ، والفناء ، والشارع ..

وفى تلك القرية كانـــوا يســـمونها القبـرة . فالعامة مولعون بالصور والتشبيهات ، لذا أطلق الناس عليها هـــذا الاسم ، فهذه المسكينة الهزيلة لم يكن حجمها أكبر من حجم عصفور ، وهى ترتجف متداعية مرتعشة الاوصال ، وتنهض مبكرة كل صباح قبل ســـائر من فى الدار ، بل قبل كل من فى القرية ، ويراها الناس دائما فى الشارع أو فى الحقول قبـل الفجر . أفلا تستحق إذن اسم القبرة ؟

وكل ما هناك أن قبرتنا المســكينة لم تكن تغرد أبدا .

الكتاب الخامس

الانحـــــدار

الفصل الأول

قصة تقدم فى صناعة الخرز الأسود

وهذه الأم التى قال عنها أهالى مونفرمى إنها ــ فيمـــا يبدو ــ هجرت بنتها الطفلة وتخلت عنها ، ماذا جرى لها ؟ واين هى ؟ وماذا كانت تصنع ؟

بعد أن تركت كوزيت الصغيرة وديعة بالأجر لدى آل تنرديبه ، واصلت طريقها ووصلت إلى مدينة « م » (مسقط راسها القديم) .

وكان هذا ــ كما ذكرنا ــ فى سنة ١٨١٨

وكانت فانتين قد غادرت إقليمها منذ اثنى عشر عاما ، تغيرت فيها مدينة « م » من وجوه كثيرة . فبينما كانت فانتين تنحدر وتهبط درجات التعاسة بعيدا عنها ، كانت المدينـــة مسقط راسها تزدهر وتكبر .

ومنذ عامين حدث فيها حدث صناعى فذ ، يعـــد علامه بارزة فى حياة بلدان الأقاليم الصغيرة .

ولما كان هـــذا الحدث هاما ، لذا نحب أن نتعرض له بالتفصيل ، كى نبرز أهميته فى قصتنا . فمنذ أزمان لا تعيها الذاكرة كانت بلدة « م » هـــذه متخصصـــة فى صناعة تقليد الخرز الاسود الذى كانت المانيا مشهورة به . وظلت هـــذه

الصناعة الصغيرة خاملة بسبب غـــلاء ثمن المواد الأولية . غلاء ينعكس على بخس أجور اليد العاملة فيها . وفى وقت عودة فانتين إلى « م » تم تحــول غير منتظر فى إنتاج هـــذه « المواد السوداء » . ففى أواخر سنة ١٨١٥ جاء للاقامة فى المدينـــة رجل غـــريب مجهول ، وعنت له فكرة اســـتخدام الجمالكة بدلا من الراتنج فى صنع أســـاور الخرز الأســـود بصفة خاصة ، وما إليها من حلى النساء الرخيصة المصنوعة من هذا النوع من الخرز ، فكان ذلك نقطـــة تحول باهرة فى هذه الصناعة المحلية الخاملة ، لأن هذا الابتكار خفض ثمن المواد الأولية كثيرا جدا ، مما أتاح قبل كل شيء رفع أجـــور العاملات والعاملين فيها . وفى هذا مصلحة عامة للسكان . كما أتاح تحسين الصـــناعة نفسها ، وفى هـــذا مصـــلحة للمستهلكين ، وسمح للمنتج ببيع سلعته المحسنة بثمن أرخص فى الوقت الذى تضاعف فيه ربحه ثلاث مـــرات ودفع به إلى ذرى الثراء بخطى واسعة .

وهكذا نتجت عن هذه الفكرة الواحدة الصائبة ثلاث نتائج جزيلة النفع .

وفى أقل من ثلاث سنوات صار صاحب هذا الابتكار رجلا ثريا . وهـــذا حسن . وأصبح كل المحيطين به أرغد عيشا ، وهذا أحسن ! وكان غريبا عن الإقليم (المحافظة) ولم يكن أحد يعرف شيئا عن أصله . ولم يكن أحد يعرف الكثير عن بداياته فى الحياة .

وتردد على الألســـنة أنه جاء إلى المدينـــة ومعه مبلغ

ضئيل جدا من المال ، بضع مئـــات قليلة من الفرنكات على الأكثر . وقد وظف هذا الرأسمال الضـــئيل فى خدمة وتنفيذ فكرة بارعـــة مبتكرة ، ورعاهـــا بالمثابرة والروية وحسن التدبير ، وهكذا استخرج من ثمراتهـــا ثروته وثروة هـــذه البلدة كلها .

فعند وصوله إلى « م » لم يكن يملك إلا ما عليـــه من ثياب ، وســـحنة عامل ، وكذلك لغته ولهجته وطريقته فى التعامل . ويبدو أنه فى نفس يوم وصوله إلى « م » فى هدوء غير ملحوظ ، قرب حلول الليل فى شهر ديسمبر ، وكيســـه فوق ظهره وعصاه الغليظة المعقدة كالهراوة فى يده ، شب حريق كبير فى دار كبيرة للمســـاكن الحكومية ، فاذا بهـــذا الرجل يلقى بنفسه وسط النيران ويعرض حياته للخطر لينقذ طفلين اتضح أنهما طفلا رئيس الشرطة . وترتب على هـــذا العمل البطولى الباهر أن أحدا لم يفـــكر من أولى الأمر أن يسأله عن جواز مروره . ومنذ ذلك اليوم عرف الجميع اسمه. كان اسمه « الأب مادلين » ! MADELEINE .

الفصل الثانى

مادلين

كان رجلا فى نحو الخمسين من عمره ، يبدو عليه انشغال البال ، وتبدو عليه الطيبة . هذا كل ما أمكن قوله عنه .

وبفضل التحسينات السريعة فى هذه الصناعة التى أجاد مادلين ابتكارها ، صارت مدينة « م » مركزا هاما للأعمال . فاسبانيا التى تستهلك كمية هائلة من الخرز الأسود ، صارت تشترى كل عام منها مقادير هائلة . وصارت مدينة « م » من هذه الناحية التجارية تكاد تنافس لندن وبرلين، وكانت أرباح الأب مادلين من الضخامة بحيث إنه منذ السنة الثانية استطاع أن يشيد مصنعا كبيرا فيه ورشتان كبيرتان . إحداها للرجال والأخرى للنساء . وكل من شعر الجوع ما عليه إلا أنه يتوجه إلى هناك ، واثقا بأنه سيجد حتما الخبز والعمل . وكان الأب مادلين يطلب من الرجال الارادة الطيبة ، ومن النساء حسن السير والسلوك ، ويطلب من الجميع الأمانة . وكان قد قسم الورش للفصل بين الجنسين ولكى يحافظ على رزانة النساء والفتيات من نزغات الطيش من مخالطـــة الرجال . وكان فى هذه الجزئية لا يعرف الهوادة . ولعل هذه المسألة هى التى لم يكن يتساهل فيها . وقد زاد من تشرده فى ذلك أن مدينة « م » بها معسكر للقوات المسلحة ، ولذا كانت فـــرص الفســـاد والفسوق فيها كثيرة . ومن هذه الجهة كان قدوم الأب مادلين

إلى المدينة خيرا وبركة ، وكأنه مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ اهلها من الفاقة وسوء الحال واللذين كانت المدينة ترزح تحتهما سنين طويلة ، وهما معوان على التبذل والفساد . أما وقـــد تحسنت الأحوال ، ولم يعد أحد يشكو الحاجة ، فقد صينت الأعراض وبدأت المدينة تعيش حياة العمل السوية ، التى تدور فيها الدماء فى الكيان الاجتماعى دورة صـــحيحة تقضى على الوهن والعلل . فقد اختفت البطالة والعوز . فلم يعد هناك جيب مهما كان مغمورا لا تجد فيها شيئا من النقـــود ، ولا مسكنا مهما كان فقيرا لا تجد فيه شيئا من البهجة .

كان الأب مادلين يستخدم الجميع ، ولم يكن يشترط عليهم جميعا إلا شرطا واحدا :

ــ كن رجلا شريفا ! كونى فتاة شريفة !

وكما قلنا آنفا ، وسط هذا النشاط الذى كان هو سببه ومحركه ، تراكمت ثروة الأب مادلين . ولكن ــ وهذا شىء جد غريب فى رجل تجارة بسيط ــ لم يكن يبدو عليه أن هذا كان همه الأكبر . بل كان يبدو عليه أنه شديد الاهتمام بالآخرين ، قليل الاهتمام بنفسه . وفى سنة ١٨٢٠ كان المعروف عنه أنه يملك ستمائة وثلاثين الف فرنك مودعة باسمه لـــدى لافيت LAFFITTE . ولكنه قبل أن يحتجز لنفسه هذه الستمائة وثلاثين ألفا من الفرنكات كان قد أنفق أكثر من مليون لإصلاح المدينة وتحسين حال الفقراء .

ولما وجد المستشفى قليل المعدات ، جهزه وأمده بعشرة أسرة جديدة . وكانت « م » مقسمة إلى مدينة عليا وأخـــرى

دنيا ، والمدينة الدنيا حيث كان يقيم لم تكن فيها إلا مدرسة واحدة ، عبارة عن كـوخ تعس متداعى البنيـان ، فشـيد مدرستين ، إحداهما للبنات والأخرى للبنين . وخصص من جيبه الخاص للمعلمين اللذين يقومان بالتدريس فيهما ضعف مرتبهما الرسمى الهزيل . وذات يوم قال لشخص أبدى دهشته لذلك :

ــ أن أول واهم موظفين فى الدولة هما المرضـع ومعلم المدرسة !

كما انشأ على نفقته الخاصة ملجأ ، وهـذا شىء يكاد يكون غير مسبوق يومئذ فى فرنسا ، وانشأ صندوقا لإعانة العمال المسنين والعجزة .

ولما كان مصنعه مركزا لحى جديد كان فيه عدد كبير من الأسر المحتاجة التى سرعان ما تكاثرت من حوله ، لذا أنشأ صيدلية مجانية ايضا .

وفى الأيام الأولى من بداية نشاطه هناك ، قال الناس:

ــ هذا شخص يريد أن يثرى .

ولما راوه يثرى البلد قبل أن يثرى هو ، قالوا :

ــ هذا رجل طموح !

وخالط هـذا الظن لديهم ظن آخر بانه رجل متدين ، ولا سيما انه كان يمارس طقوس الدين وشـعائره فى حدود معينة . وذلك كان شـيئا يراه الناس فى ذلك الحين أمـرا مرغوبا فيه . فقد كان يذهب كل يوم أحد لحضور القداس فى

الســـاعة الســـابعة . ولكن نائب تلك الدائرة ، الذى كان يتشمم المنافسة حيثما كانت بدأ ينظر إلى هـــذا التدين بعين القلق والارتياب. وكان هذا النائب عضوا فى الهيئة التشريعية فى عهد الإمبراطورية ، وكان يرى فى التدين مثل رأى ولى نعمته الذى كان قسيسا قبل الثورة ثم صار فى عهدها مشهورا باسم فوشيه ، FOUCHE وتقلد رئاسة الشرطة ووزارة الداخلية على أيام الإمبراطور وصار اسمه دوق أوترانت OTRANTE ولذا كان فى خلواته مع خاصته يسخر من فكرة الله . فلما رأى صاحب المصنع الثرى يذهب فى السابعة من صباح يوم الأحد إلى الكنيســـة لسماع القداس الإلهى ، توسم فيـــه منافسا محتملا ، وقرر أن يتفوق عليه هذا المضمار ، فاتخذ له « قس اعتراف » من الجزويت ، وصار يحضر القداس الكبير وقداس المساء أيضا ! فالطموح فى تلك العهد كان يتجلى فى الســـباق نحو برج الكنيسة ! وقد استفاد الفقراء من هذه المنافسة وهذا الفزع أكثر مما استفاد الرب ، لأن النائب أنشأ فى المستشفى أيضا سريرين باسمه ، بالإضافة إلى العشرة التى سبقه إلى إنشائها مادلين ، فصار المجموع اثنى عشر سريرا مجانيا .

ولكن فى سنة ١٨١٩ انتشرت الشائعة ذات صـــباح فى المدينة أن المحافظ بناء على الخدمات التى أداها المسيو مادلين للإقليم ، قـــد التمس من جلالة الملك تعيينه عمدة للمدينة . فتلقف من ظنوا به أنه طموح هذه الشائعة وتصايحوا :

ـــ أرأيتم ؟ أو لم نقل لكم ؟

ولم تكن هذه الشائعة بلا أساس ، فبعـــد بضعة أيام

نشرت صحيفة المونيتير MONITEUR نبأ هـــذا التعيين .
ولكن فى اليوم التالى رفضه الأب مادلين !

وفى نفس هذه السنة ١٨١٩ ظهرت الطريقـــة الجديدة التى ابتكرها مادلين فى المعرض الصناعى ، وبناء على تقرير لجنة التحكيم انعم جـــلالة الملك على المخترع بوســـــام فيلق الشرف من طبقة فارس . وعندئذ تصايح هؤلاء :

ـــ هذا هو الوسام الذى كان يصبو إليه !

ولكن الأب مادلين رفض الوسام أيضا !

وقال الناس أن هـــذا الرجل لغـــز غامض . وقـــال الحاسدون :

ـــ إنه على كل حال رجل مغامز !

وواضـــح أن الإقليم كان مدينا له بالشىء الكثير ، وأن الفقراء كانوا مدينين له بكل شىء . وكان نفعه عميما بحيث انتهى بالناس الأمر إلى احترامه وإجلاله . وكان دمثا فانتهى بهم الحال إلى حبه . وكان عماله على الخصوص يحبونه حب العبادة ، فى وقار وتوقير .

ولما تأكد للناس ثراءه ، صار « اقطاب المجتمع الراقى » يحيونه ، وصار أهل المدينة يقولون عنه « المسيو مادلين » ، لا « الأب مادلين » . اما العمال والأطفال فاستمروا يلقبونه « الأب مادلين » ولا يعدلون بهذا اللقب شيئا . وكان هـــو يبتسم لسماع ذلك قرير العين .

ولما ارتفع نجمه انهمرت عليه الدعوات إلى الحفـــلات والصالونات التى كانت فى البداية موصدة الأبـــواب فى وجه الصانع ، انفتحت أبوابها على مصراعيها للمليونير ! وعبثـــا تقربوا منه ، لأنه رفض جميع هذه الدعوات .

ولم تجد ألسنة السوء تعليلا لموقفه ، فقالوا :

ــ هذا رجل جاهل لم ينل حظا من التعليم أو التربيـــة الحسنة ، ولا يدرى أحـــد من أين جاء . وهو يعلم أنه لن يحسن السلوك فى الأوساط الراقية . وليس من الثابت أنه يعرف القراءة ...

ولما رأوه يربح الأموال الطائلة . كانوا قد قالوا عنه :

ــ هذا طبيعى . إن هو إلا تاجر !

ولما رأوه ينفق أمواله وينذرها فى أعمال الخير ، كانوا قد قالوا :

ــ إن هذا إلا طموح !

ولما رأوه يرفض المناصب والأوسمه ، كانوا قد قالوا :

ــ إن هو إلا مغامر أفاق !

ولما رأوه يرفض ارتياد المجتمع الراقى ، قالوا :

ــ إن هو إلا جلف !

وفى سنة ١٨٢٠ ، بعد وصوله إلى مدينة « م » ، كانت لخدماته العامة قد غدت باهرة مجلجلة الدوى ، واجمعت رغبة

الناس على اختلافهم على تزكيته ، بحيث عينـــه جلالة الملك عمدة للمدينة مرة أخرى . ورفض أيضا . ولكن محافظ الإقليم أصر فى هذه المرة على مقاومة رفضـــه ، وجاء كل الأعيـــان والوجهاء يرجونه أن يقبل المسئولية الجديدة . بل إن أفراد الشـعب صـــاروا يلقونه فى عرض الطـــريق ويلحـــون عليه ويتوسلون إليه . وأمام هذا الالحاح الشـــديد لم يجد بدا من القبول فى النهاية .

ولوحظ أن ما حفـــزه إلى الرضـــوخ كان على الأخص تبكيت وجهته إليـــه امرأة عجوز من نساء عامة الشـــعب ، صاحت به فى غضب من فوق عتبة بابها وهو مار به :

— العمدة الصالح نافع للناس . فكيف يجوز لإنســـان صالح أن ينكص أمام خير ونفع يمكن أن يؤديهما للناس ؟

وكانت هذه هى المرحلة الثالثة فى مراقى صـــعوده . فصار الأب مادلين المسيو مادلين ، والمســـيو مادلين صـــار سيادة العمدة !

الفصل الثالث

مبالغ مودعة عند لافيت

وفيما عدا هـــذا ظل بسيطا فى كل شىء كما كان فى أول يوم . وكان شعره أشيب ، وعيناه جادتين ، وبشرته مسفوعة كالعمال ، ووجهه متفكر كالفلاســفة . وكان يلبس فى العادة قبعة عريضة الطنف ، وبدلة ردنجوت من الصوف الغليظ مزررة حتى العنق . ويمارس عمله كعمدة ، ولكن فيمـــا عدا هذا كان يعيش وحيدا فى عزلة . فهو لا يتحدث إلا مع قلة من الناس . ويتجنب المجاملات ، ويحيى الناس تحيـــة جانبية ، ويبتسم ليتحاشى الكلام ، ويجود بماله ليتحاشى الابتسام . وكانت النساء تقلن عنه :

— يا له من دب طيب !

ولذته الوحيدة التنزه سيرا على الأقدام فى الحقول .

وكان يتناول وجبات طعامه دائما بمفرده ، وأمامه كتاب مفتوح يقرأ فيه . فلديه مكتبة حسنة. يحب الكتب ، لأن الكتب أصدقاء باردون مأمونون . ومع توفر وقت الفراغ لديه بعـــد أن أثرى ، بدا واضحا أنه استغله لتثقيف فكره . ومنذ حـــل بمدينة «م» لوحظ عليه أن لغته تزايد رقيها وتهذيبها وصقلها ، فصارت ألفاظه عذبة منتقاة .

ومن عادته أن يحمل فى نزهاته الخلوية بندقية ، ولكنه

قلما كان يستخدمها . وإذا حدث منه هذا مصادفة كان تصويبه دقيقا مفزعا . ولم يقتل قط حيوانا لا أذى منه ، ولا طائرا صغيرا .

ومع أنه لم يعد شابا ، إلا أنه تروى أقاصيص عن قوته الخارقة . وكان يمد يد المساعدة البدنية لمن يراه بحاجة إلى هذا ، مثل إقامة حصان وقع على الارض ، أو دفع عجلة مغروسة فى الطين ، أو إيقاف ثور هائج بالقبض على قرنيه .

وكان على الدوام يخرج ملىء الجيوب بقطع العملة ، ويعود دائما خالى الوفاض . وعندما يمر فى قرية كان الأطفال شبه العراة يجرون خلفه بفرح ويلتفون حوله كأنهم سحابة من صغار البعوض .

والاعتقاد السائد ـ تخمينا ـ أنه عاش حياته قبل قدومه للمدينة بين الحقول ، فقد كان عليما بأسرار شتى نافعة فى الزراعة كان يعلمها للفلاحين . ولا سيما فيما يتعلق بالقضاء على الحشائش الطفيلية التى تضر بمحصول القمح ، وفيما يتعلق بحماية الدواجن من القوارض ، وما أشبه هذا .

وكان الأطفال يحبونه أيضا لأنه كان يعرف كيف يصنع لعبا صغيرة من القش .

وعندما كان يرى باب إحدى الكنائس وعليه شارة سوداء يدخل للعزاء . ويبحث عن انباء الجنازات ليشارك فيها ، مثلما يبحث الآخرون عن حفلات العرس أو العماد . فالترمل والتعاسة كانا يجتذبانه لشدة عذوبة روحه ، لذا كان



وكان الأطفال يحبونه ايضا لأنه كان يعرف
كيف يصنع لعبا صـــــغيرة من القش ..

يخالط الأصدقاء المحزونين ومن يلبسون الحداد ، والأسر التى تلبس السواد ، والكهنة الملتفين حول تابوت . وكان يألف مطالعة المزامير التى تتحدث عن رؤى العالم الآخــر . وكان يصغى دائما وعينه مرفوعة صوب السماء فى خشــوع وشعور بالالهــام لكل ما يتعلق باسرار اللامتناهى ، ولتلك الأصــوات الحزينــة التى تترنم بأهازيج وتراتيل على حافة هاوية الموت الغامضة .

كانت أعماله الخيرية كثيرة جدا ، يقوم بها متخفيا مثلما يتخفى من يصنع الشر ، وكان يتسلل خلسة فى الليل إلى البيوت ، ويصعد السلالم خلسة ايضا ، ويعود الساكن الفقير إلى بيته بعد ذلك باخرة من الليل فيجد باب مسكنه مفتوحا ، وقد يجده مغتصبا احيانا ، ويصيح مستنجدا بالناس لأن لصــا قد دخل المسكن فى غيابه . حتى إذا ما دخل كان أول ما يقع عليه نظره قطعة من النقود الذهبيــة فوق منضدة او ما إليها ، فيعــرف الجميع أن اللص الذى حضر إنما هو الأب مادلين !

كان دمثا وحزينا . فكان العامة يقولون :

ـــ هذا رجل غنى لا يبدو عليه الكبر أو الزهو . هــذا رجل سعيد لا يبدو عليه الرضا !

وكان بعضهم يزعمون أنه شخصية غامضة ويؤكدون أنه ما من احد يدخل حجرته الخاصة ، وهى « قلاية » أشبه بالزنزانة بل انها أشبه بصومعة ناسك . وشــاع هذا القول على السنة الناس ، حتى أن بعض الســيدات الشــابات الأنيقات من مجتمع مدينة « م » جئن إليه ذات يوم وسألته :

ـــ يا سيادة العمدة . أرنا حجرتك الخاصة . لأنه قيل لنا أنها مغارة !!

فابتسم ، وقادهن على الفور إلى هــذه « المغارة » ، فكان ذلك عقابا فوريا لهن على فضولهن . فهى حجرة مؤثثة أثاثا محترما بقطع من خشــب الأكاجــو ، ولكنه أثاث قبيح الشكل ككل أثاث مصنوع من هــذا النــوع من الخشــب . والجدران مغطاة بالورق. ولم يلاحظن فيها شيئا يلفت الأنظار اللهم إلا شمعدانين من طراز عتيق موضوعين فوق المدفأة ، ويبدو عليهمــا انهما مصنوعان من الفضــة ، لأنهمــا كانا مدموغين . وهى ملاحظة تنم على الذكاء فى المدن الصغيرة .

ومع هذا لم يكف الناس عن ترديد انها حجرة لا يدخلها أحد ، وأنها مغارة ناسك ، أشبه بالجحر أو المقبرة .

وكان الناس يتهامسون أيضا بأنه يملك مبالغ « طائلة » مودعة لدى لافيت ، وأنها تحت طلبه فى أى لحظــة ، بحيث يستطيع المسيو مادلين ـــ كما قيل ـــ أن يحضر ذات صــباح إلى « لافيت » فيوقع إيصالا ويحمل مليونيه أو ملايينه الثلاثة وينصرف فى مدى عشر دقائق . وفى الواقع كانت هذه الملايين الثلاثة لا تزيد فى الحقيقة ـــ كما ذكرنــا آنفا ـــ على ستمائة وثلاثين أو أربعين ألف فرنك .

الفصل الرابع

المسيو مادلين يرتدى الحداد

فى مستهل سنة ١٨٢١ نشرت الصحف نبأ وفاة المسيو ميرييل ، أسقف « د » الملقب بسـيدنا بينفينى ، وكيف أنه انتقل إلى الأمجاد السماوية بكل قداسة وهو فى سن الثانية والثمانين .

ونضيف هنـا تفصيلات أغفلتهـا الصحف ، وهى أن أسقف « د » عنـدما توفى كان قد أصيب بالعمى منـذ بضع سنين . وكانت أخته بجواره .

ونقول هنا بهذه المناسبة إن إصابة المرء بالعمى وحظوته بالحب يعدان من مصادر السعادة فى هذه الدنيا التى لا وجود فيها للكمال . فأن تكون دائما إلى جوار المرء زوجـة أو ابنة أو أخت ، تجدها كلما احتجت إليها ، فهى هناك لأنك بحاجة إليها ، ولأنها هى أيضـا بحـاجة إليك ولا يمكن أن تستغنى عنك ، وتقوم لك بكل ما هو ضرورى لك ، وتقيس إعزازها لك بمقدار وجودها إلى جوارك ، فتقول فى نفسك :

ــ ما دامت تخصنى بكل وقتها ، فكل قلبها إذن مملوك لى .

لأنك ترى فكرها بدلا من رؤية وجهها، وتتلمس بأصابعك إخلاصها وسط دياجير هذا العالم ، وتسـمع حفيف ثوبهـا

وكأنه رفرفة أجنحة الملائكة . وكلما سمعت وقع خطاها وهى مقبلة أو مدبرة ، أو سمعت صـــوتها وهى تتـــكلم أو تغنى ، أحسست أنك موضوع هـــذه الخطى ومحور هـــذه الأقوال والنغمات . فتشعر عندئذ أنك فى منتهى القوة مع أنك فى منتهى العجز ، وأنك وسط الظــلام الذى يحيط بك من كل جانب تحولت إلى نجم ساطع الضياء يدور فى فلكه هذا الملك الكريم. وما أقل مناعم الحياة التى تضارع هـــذا الشـــعور بالغبطة والهناء. لأنه شعور بأنك محبوب لذاتك، لا لما يمكن أن تؤديه. وإنك محبوب رغم كل شيء ، بل ورغم إرادتك . وهذه نعمة كبرى لا يعرفها إلا الأعمى المحبوب . فكل خدمة تؤدى له فى محنته هذه فكأنها لمسة مداعبة او ملاطفة . فهل يعوزه بعـــد ذلك شيء ؟ كلا ! فما فقــد النور من ملك الحب . وأى حب ؟ حب كله فضل وفضيلة . ولا وجود للعمى حيث يوجد اليقين . فالروح تتلمس فى الظلام روحا أخرى وتجدها . وهذه الروح الأخرى الأمينة روح المرأة . وإذا يد تسندك . إنها يد هـــذه المرأة . وإذا فم يلثم جبينك ، إنه ثغـــرها . وتحس تنفســـا بقربك . انه تنفسها ! يا لها من سعادة ! وفى هذه النشـــوة الروحية يتفتح القلب كما تتفتح زهرة سماوية ! وكل أنـــوار الدنيا لن تعدل عندئذ هذه الظلمة التى كلها إشراق علوى ! فهو ليس وحده ، بل معه دائمـــا هـــذا الملك الطاهر . وإذا ابتعدت فلكى تعود ، تتلاشى كالحلم وتعود للظهور كالواقع . فاذا أحس دفئا يقترب منه ، عرف أنها هى . وتشيع الفرحة فى النفس وتمتلىء الدنيا المظلمة بأنوار الأنس والأمان . لأن هذه المرأة الملك صارت عوضا عن فـــراغ العالم ودياجيره .

ولئن لم ير شيئا ، فهو يلمس روح الرحمـــة والحب ، وليس كاللمس يقين يغنى عن العيان الذى قد يخدع . وهـــذا هو الفردوس الذى لا يتجلى إلا فى الظلام . وفى هذا الفردوس عاش سيدنا بينقينى ، ومنه انتقل إلى الفردوس العلوى .

وكانت صحيفة «م» المحلية قد نشرت نبأ وفاة الأسقف ، فظهر المسيو مادلين فى اليوم التالى وقد وضع شارة سوداء على قبعته .

ولاحظ الناس هـــذا الحداد ، وبدأت الثرثرة . وانتهت إلى أن صلة قرابة لابد أنها تربط المســـيو مادلين بالأسقف . فالقى هذا بعض الضوء على أصل المســـيو مادلين . وقالت سيدات الصالونات :

ــ إنه يلبس الحداد على نيافة أسقف « د » !

فرفع هذا من قدر المسيو مادلين رفعة عظيمة ، وصار له فجأة اعتبار كبير فى مجتمع « م » من أبناء الطبقة النبيلة . وفكر ما يقابل فى « م » حى سان جرمان فى باريس . فى رفع الحظر عن المسيو مادلين ، ما دام قد بات محتمـــلا أنه يمت بصلة قربى إلى أمير من امراء الكنيسة . ولاحظ المسيو مادلين انه صـــار يتلقى تحيات اشـــد حرارة وحفاوة من العجائز ، وابتسامات اشد إشراقا من الشابات . وذات مســـاء قالت عميدة هذه النخبة المتازة من نساء العلية ، مدفوعة بالفضول وبحقوق التقدم فى السن :

ــ يا سيادة العمدة . انت لا شـــك ابن عم للمرحوم أسقف « د » .

فأجابها :

— لا يا سيدتى !

فقالت السيدة بدهشة :

— ولكنك تلبس عليه الحداد . . .

فقال :

— ذلك أننى فى شبابى كنت خادما فى أسرته !

ولاحظ الناس ايضا شيئا آخر ، انه كلما مر فتى من اهالى جبال سافوا بالمدينة من الفتيان الذين يجوبون الإقليم لتنظيف المداخن ، كان سيادة العمدة يستدعيه ، ويسأله عن اسمه ، ويعطيه نقودا . وكان الفتيان يتناقلون هذا ، فصار عدد اكبر من فيتانهم يتوافدون على المدينة .

الفصل الخامس

وميض غامض على الأفق

رويدا رويدا ، وبمـــرور الوقت تلاشـــت كل انـــواع المعارضة . وفى البداية كان هناك ضد المسيو مادلين نوع من القانون يتصدى دائمـــا لكل من يرتفع ذكره ويصـــعد مراقى النجاح ، فى صورة أحقاد وتنديدات ، ثم تحولت التنديدات إلى مناوشـــات ، لم تلبث أن خفت فصـــارت لونـــا من التلميح والتعريض ، ثم تلاشى هذا أيضا ، وصار احترامه تاما لدى الجميع ، بكل مودة قلبية . حتى إذ حلت سنة ١٨٢١ صارت كلمـــة سيادة العمدة فى « م » تقال بنفس لهجة التوقير التى كان يقال بها « نيافة الأسقف » أو « ســـيدنا الأسقف » فى « د » فى سنة ١٨١٥ . وصـــار الناس يتوافدون من مسيرة عشرة فراســـخ لاستشارة المســـيو مادلين . وكان يفض الخلافات ويسوى المنازعات ، ويصالح الأعداء ، ويحول دون رفع الدعاوى القضائية . لأن الكل كانوا يرتضونه قاضـــيا يحكم بينهم بقانونه الخاص حسبما يتراءى له . حتى لكأن روحه ينطوى على كتاب القانون الطبيعى . فكان هذا النوع من الإجلال يسرى بالعدوى بين الناس حتى شمل الإقليم كله فى ست سنوات أو سبع ...

وكان فى المدينة ، بل وفى الدائرة كلهـــا رجل واحد لم تنتقل إليه هذه العدوى ، ومهما فعل المسيو مادلين ظل هذا

الرجل متمردا ، كأنمـــا أوتى غريزة غامضـــة توقظ سريرته وتحفزها ضد المسيو مادلين وتسىء به الظن .

ويبدو فعـــلا أن لـدى بعض الناس غريزة حيوانية او بهيمية حقيقية لا يمكن لأحـد أن يتدخل فى نشاطهـا الأعمى المحـايد ، ولا يمكن ترويضها ، وتسـيطر على صـاحبها سيطرة تامة ، شـأن كل غريزة لدى الحيـوان . وهى التى تخلق لدى صاحبها شعور التعاطف أو النفور التلقائى ، وهى التى تفرق بين طبيعة وأخرى، ولا تخطىء ولا تخدع ولا تنخدع أبدا . وهى ذات مضاء لا يعرف الهوادة أو التردد ، وتتمتع بوضوح من نوع غامض ، ولا تصغى أبدا لصوت العقل ولا لما قد يشير به الذكاء . فهى أشبه بغريزة الكلاب ، ولا سـيما كلاب الصيد ، وتجعل من صاحبها ككلب الصيد فعلا . . وتنبه صاحبها لخصمه الطبيعى مثلما تنبه الغريزة الكلب إلى وجود قط بالقرب منه ، ولو كان متواريا عن النظـر . فاذا بالرجل الكلب يشعر بالعداوة والتنمر للرجـل القط . وإذا بالرجـل الثعلب يشعر بوجود الرجل الأسد !

وفى كثير من الأحيان ، عندما كان المسيو مادلين يمـر بشارع ، فى هدوء ودود تحف به بركات الجميع ودعواتهم . كان يتفق ان يلتفت وراءه فجـأة رجل طويل القامة يرتدى ردنجوتا رماديا بلون الحديد ، وفى يده عصا غليظـة ، وعلى رأسه قبعـة ساقطة على عينيـه ، ويتعقبه بنظراته إلى أن يختفى عن الأنظار ، وقد عقد ذراعيه على صدره ، ويهز رأسه ببطء ، ويرفع شفته العليا وقد زمت إليها الشفة السفلى إلى أن تلامسا أنفه . وهى تمعيجة لملامح السحنة كأنها تقول :

ـــ ولكن من عساه يكون هذا الرجل ؟ أنا متأكـد أنني رأيته في مكان ما . ولكني على كل حال لست الغر الذي ينخدع به !

وهذا الشخص الجاد العابس عبوســا يكاد أن يكون توعدا ، كان من النوع الذي ما إن تقع عليه العين حتى يشغل البال .

كان اسمه جافير JAVERT وكان من هيئة الشرطة .

وكان يشغل في مدينة « م » منصــبا اليما ولكنه نافعا ، وهو منصب المفتش . ولم يكن معاصرا لبداية المسيو مادلين في مدينة « م » . وكان جافير مدينا للمنصب الذي يشـغله لرعاية وحماية المسيو شابوييه CHABOUILLET ، السكرتير الخاص لوزير الدولة الكونت انجليس ، الذي كان يومئذ مدير الشرطة في باريس . وعندما وصل جافير لتولي منصبه في «م» كان صاحب المصنع قد جمع ثروته وانتهى الأمر ، وكان الأب مادلين قد صار المسيو مادلين .

ولبعض ضباط الشرطة سحنة خاصـــة بهم ، تتعقد سيماها بما يمتزج فيها من خساسة وســلطة . وكان لجافير هذه السحنة ، ولكن بدون الخساسة .

وفي اعتقـــادنا أنه لو كانت الأرواح مما تراه الأعين ، لرأينا بوضوح تام ذلك الشيء الغريب الذي يعزوه كل فرد من أفراد النوع البشري إلى أفراد المملكة الحيوانية . وأمكننا أن نتعرف في سهولة ويسر على تلك الحقيقة التي يلمحها المفكر .

وهى أن جميع مراتب الحيوانات بدءا بالمحارة وانتهاء بالنسر ، وبدءا بالخنزير وانتهاء بالنمر ، موجودة فى الإنســـان ، وأن طبيعة أحد هذه الحيوانات موجودة فى فرد من بنى الإنسان . وفى بعض الأحيان توجد فى الفـــرد من البشر طبائع عدد من هذه الحيوانات فى آن واحد .

فالحيوانات ليست شيئا آخر سوى صـــور فضـــائلنا ورذائلنا غادية رائحته أمام أعيننا ، وكأنها الأشباح المرئية لنفوسنا وأرواحنا . والله يرينا إياها كى يجعلنا نفكر ونتدبر . ولما لم تكن الحيوانات إلا ظـــلالا ، لذا لم يجعلهـــا الله قابلة للتهذيب والتثقيف بمعنى الكلمة . وما الجدوى ؟ أما أرواحنا فحقائق ولها غاية خاصة بهـــا ، لذا وهبهـــا الله الذكاء ، أى القدرة على التعلم والتثقف . فالتربية الاجتماعيـــة الجيـــدة يمكنها دائما أن تستخرج من النفس البشريـــة ــ أيا كانت ــ ما تنطوى عليه من نفع .

وهذا الكلام ينصب ــ طبعا ــ على الحياة الأرضـــية المحدودة الظاهرة للعيان ، فلا يمتد إلى الموضـــوع الأعوص من هـــذا ، وهو موضـــوع الشخصـــية السابقة أو اللاحقة للكائنات فهى ليست خاضعة لأحكام البشر . والذات المرئية الظاهرة لا تبيح للمفكر بأى حـــال أن ينكر وجـــود الذات الكامنة . أما وقد ذكرنا هذا الاحتراز ، فلنمض فى سياق كلامنا قدما .

ومتى اتفقنا على أن كل إنسان نوعا من أنواع الحيوان التى تعيش على الأرض ، سهل علينا أن نقول ماذا كان نوع ضابط الأمن جافير .

إن بعض الفلاحين يعتقدون أن كل بطن تلدها الذئبة يكون من أفرادها كلب وأن الذئبة الأم تقتله بمجرد ولادته ، وإلا التهم أبناءها الآخرين متى كبر .

فلو أعطيت وجها بشريا لهذا الكلب المولود من ذئبة ، لكان هو جافير ! ...

وجافير ولد فى السجن ، وضعته أمه العرافة التى تتكهن بالغيب عن طريق أوراق اللعب . أما زوجها فكان محكوما عليه بالأشغال الشاقة . وشب وهو يعتقد أنه منبوذ من المجتمع ، وانه لا سبيل له إلى العودة لأحضان هذا المجتمع أبدا . ولاحظ ان المجتمع المحترم ينفى من حظيرته فئتين من الناس : من يعتدون عليه ، ومن يقومون على حراسته . فلم يكن له إذن خيار إلا بين هاتين الفئتين . وفى الوقت نفسه كان يحس فى نفسه نواة دفينة فى أغوارها من الصرامة والانتظام والأمانة ، مقرونة بمقت لا يمكن التعبير عنه لتلك السلالة البوهيمية التى انحدر منها . فدخل خدمة الشرطة . ونجح فيها . وفى سن الاربعين غدا مفتشا فى مدينة « م » .

وكان قد عمل فى شبابه بسجون الجنوب .

ويجب قبل أن نمضى فى قصتنا أن نتفق على معنى كلمة « الوجه البشرى » الذى عزوناه منذ قليل إلى جافير .

كان وجه جافير البشرى عبارة عن أنف أفطس بمنخرين غائرين ترتفع صوبهما على خديه سالفتان ضخمتان من الشعر . وكان الناظر إليه يشعر لأول وهلة بعدم ارتياح متى

وقع نظره على هاتين الغابتين وهذين الكهفين . وعندما كان جافير يضـــحك ، وهـــذا أمر نادر ورهيب ، كانت شـــفتاه النحيلتان تتباعدان ، فلا تظهر من بينهما أسنانه فحســـب ، بل لثته أيضا ، وتتكون أخاديد عميقة وحشية حول أنفه كالتى ترى حول خطم الحيوان المفترس الضارى . أما جافير الجاد فله وجه كلب . أما حينما يضحك ، فوجهه وجه نمر . وجبهته ضيقة ، ويافوخه صـــغير ، وفكاه كبيران . وشعره يغطى جبهته ويهتدل على حاجبيه ، وبين عينيـــه خط غـــائر دائم الظهور كأنه كوكب الغضب ، ونظرته قاتمة ، وفمه مزموم مخيف ، وفى سحنته كلها سيطرة أمر ونهى وحشية .

وهذا الرجل مركب من شـــعورين بســـيطين وطيبين نسبيا ، ولكنه يجعلهما سيئين بالمبالغة التى يمارسهما بها . وهذان الشعوران هما احترام السلطة وكراهية التمرد . وفى نظره لم تكن السرقة ، ولم يكن القتل إلا صورتين من صـــور التمرد . وكان يحيط بهالة من الإيمان الأعمى والعميق معا كل من له وظيفة فى الدولة ، بدءا بالوزير الأول وانتهاء بخفـــراء الحقول . ويغمر بالازدراء والنفور والتقزز كل من تخطى مرة واحدة العتبة القانونية للشر . كان إطلاقيا فى أحكامه ولا يعرف فيها هوادة ولا استثناء . فهو من ناحية يقول :

— إن الموظف لا يمكن أن يخطىء . والقـــاضى ورجل القانون دائما على حق .

ومن ناحية أخرى يقول :

ـــ هؤلاء الناس هالكون هلاكا لا رجعة فيه . ولا يمكن أن يأتى منهم خير .

فكان يشارك بكل جوارحه رأى المتشددين الذين يعزون إلى القانون البشرى قدرة لا حد لها على دفع الأبالسة وفرزهم ليكونوا إلى الأبد فى قـــاع المجتمع . وكان فى الوقت نفســـه رواقيا ، جادا ، صارما ، زاهدا . وكان حالما حزينا متواضعا ومتعاليا فى آن واحد شـــأن كل المتعصبين . ونظرته كانت أشبه بالمثقاب، فهى باردة نفاذة . وكانت حياته كلها فى هاتين الكلمتين : السهر والمراقبة . وأدخل سياسة الخط المستقيم فى أشد أمور الدنيا التواء . فهو واع بجدواه ونفعه للمجتمع وبقداســـة مهمتـــه الرســـمية . وكان جاسوســـا يقدس الجاسوسية ويمارسها كما يمارس الكاهن واجباته . وويل لمن يقع تحت يده ! فهو خليق أن يقبض على أبيه إن هرب من الليمان ، وأن يبلغ عن أمه إن خرقت أهون اللـــوائح . وكان حريا أن يقدم على هذا بذلك الارتيـــاح الداخلى الذى توفره الفضيلة لمن يمارسونها بإيمان . أضف إلى هذا أنه كان يعيش حياة حرمان وعزلة وانكار ذات وعفة ، وليست له أى ملهاة أو تسلية . فهو الواجب الصارم ، وهو الشرطة ، على نحو ما كان يفهم الإسبرطيون اسبرطة وينمتون إليها . فأمانته بلا حدود ، وفيها ضراوة .

فكل شخصية جافير كانت تعبر عن الرجل الذى يرقب وهو متوار متربص . ولم يكن أحد يرى جبينه المتوارى تحت

قبعته ، أو يرى عينيه المتواريتين تحت حاجبيه ، أو يرى ذقنه الغائص فى رباط عنقه ، أو يديه المدسوستين فى كميـــه ، أو عصاه التى كان يحملهـــا تحت ردنجوتـــه . ولكن متى حانت الفرصة الملائمة ، رايت على حين غرة جبينـــا بارز العظام ضيق المساحة ، ونظرة قاسية وذقنا متوعدا ، ويدين كبيرتين وعصا رهيبة ، وكأنما هى قد برزت من كل هـــذه الظـــلال الخفية .

وفى لحظات فراغه ، وهى جد قليلة ، كان على كراهته للكتب يقرا ، ولذا لم يكن اميا تماما . وكان هذا باديا فى شىء من الطنطنة فى كلامه .

ولم تكن له اى رذيلة ، كمـــا قلنـــا ، ولكن عندما كان يرضى عن نفسه ، كان يسمح لها بمضغة طباق . وكانت هذه همزة الوصل بينه وبين البشرية .

ومن اليسير أن ندرك بلا مشقة أن جافير كان مصـــدر فزع لتلك الفئة التى تنعتها الإحصاءاتالسنوية لوزارة العدل بأنها فئة المشبوهين . فالتفوه باسم جافير كان كافيا للياذهم بالفـــرار ، أما رؤيـــة وجه جافير فكانت تجعلهم يتسمرون جامدين كالتماثيل فى مواضعهم .

وهكذا كان هذا الرجل المروع .

وكان جافير كأنه عين مثبتـــة على المســـيو مادلين ؛ لا تفوتها منه حركة أو سكنة . عين ملئها الريب والظنون . وانتهى الأمر بالمسيو مادلين إلى التنبه لهـــذا كله ، ولكنـــه

تظاهر بأنه لا يعنى فى نظره كثيرا ولا قليـــلا . بل ولم يوجه بصدده سؤالا واحدا إلى جافير ، ولم يكن يتعمـــد لقاءه ، أو يتحاشاه ، وتحمل — من غير أن يبدو عليه التنبه للأمر — تلك النظرة الثقيلة . وكان يعامل جافير كما يعامل كل الناس بيسر وطيبة .

ومن بضع كلمات افلتت من جافير فطن السامع أنه بحث سرا ، مدفوعا بذلك الفضـــول الذى مبعثه الغريزة والإرادة معا ، عن كل الآثار السابقة التى يمكن أن يكون الأب مادلين قد خلفها وراءه فى أماكن أخرى قبل قدومه إلى مدينة « م » . ويبدو أنه كان يعرف ، وكان يقول أحيانا بعبارات مستورة ، إن بعضـــهم قام بتحريات وجمع معلومات فى إقليم معين عن عائلة معينة اختفت من الوجود . ووصل ذات مرة إلى حد القول ، وهو يحدث نفسه :

— أعتقد أننى ضيقت عليه الخناق !

ثم ظل ثلاثة أيام غارقا فى التفكير . ويبـــدو أن الخيط الذى خاله بين يـــديه تمـــاما قـــد انقطع . وفى هذا ما يكفى لتصحيح بعض الصفات المطلقـــة التى نعتنا بهـــا الغريزة الحيوانية ، عندما قلنا إنها لا تخطىء . فالحق أنه ما من شىء فى حياة البشر جدير بهذا الوصف . جل من لا يخطىء . فكل ما تملكه الغريزة من قدرة أحيـــانا هو التنبـــه والاضطراب ، ولكنها قد تدرك هدفها وتصل إليه ، وقد تتنكب الطريق كمـــا يفقد كلب الصيد رائحة الطريدة . ولولا هذا لكانت الغريزة

أرقى من العقل ، أو الذكاء . ولكانت البهائم أكثر استنارة من الإنسان .

ومن ثم نقول إن غريزة جافير اهتزت واضطربت لمـــا واجهت كل هـــذا الهدوء والثبات الطبيعيين لدى المســـيو مادلين . ولكن ذات يوم يبدو أن مسلكه الغريب نرك انطباعا خاصا لدى المسيو مادلين . وكانت هذه هى مناسبة ذلك .

الفصل السادس

الأب فوشليفان FAUCHELEVENT

كان المسـيو مادلين مارا ذات صـباح فى حارة غير مرصوفة فى مدينة « م » ، عندما سمع ضجة ورأى جمعا من الناس على مبعدة فاتجه صوبه . فاذا رجل مسن اسمه الأب فوشليفان قد سقط لتوه تحت عربـة نقله التى خـر حصانها صريعا .

وفوشليفان هذا كان من الأعداء القلائل الذين ما زالوا يحقدون على المسيو مادلين فى ذلك العهد . فعندما وصـل مادلين إلى هذا الإقليم كان فوشليفان كاتبا عموميا سـابقا ومزارعا شبه متعلم ، يمارس تجارة بدأت تتجه نحو الكساد . ورأى فوشليفان هذا العامل البسيط يثرى ، فى حين كان — وهو « المعلم » المحترم — يهوى إلى الإفلاس . فملأه هذا حسدا وغيرة ، وصنع غاية ما أمكنه فى كل مناسبة للاضرار بمادلين . ثم أعلن إفلاسه ، ولم يبق لديه من حطام الدنيا إلا حصان وعربة نقل ، وليست له أسرة ولا أبناء ، فاضطر أن يعمل حوذى نقل كى يعيش .

وانكسر فخذا الحصان فلم يستطع النهوض، أما الشيخ فكان محشورا بين العجلات ، وجاءت سقطته بحيث صارت العربة بثقلها كله جاثمة فوق صدره . وكانت العربة محملة بأشياء ثقيلة ، لذا كان الأب فوشـليفان (ومعنـاه « قبض

الريح ») يصرخ ويطلق شهقات مؤلمة للغاية . وحاول الناس إخراجه ولكن ذهبت محاولاتهم أدراج الرياح . وكان أى جهد فوضوى ، وأى عون طائش خائب ، وأى هزة خاطئة يمكن أن تقضى على الشيخ القضاء الأخير . وكان من المستحيل تخليصه إلا برفع العربة من أسفلها . وكان جافير قد جاء فى لحظة وقوع الحادث ، وبعث فى طلب رافعة معينة يسمونها « العفريتة » .

واقبل المسيو مادلين ، فأفسح له الناس فى احترام . وصرخ فوشليفان :

ــ أغيثونى ! من الشهم الذي ينقذ شيخا فانيا ؟

والتفت المسيو مادلين إلى الحاضرين وسألهم :

ــ ألديكم عفريتة ؟ (آلة رفع الأثقال) .

فقال فلاح :

ــ لقد أرسلوا فى طلبها .

ــ وكم من الوقت يلزم لحضورها ؟

ــ لقد ذهب الرسل إلى أقرب موضع به ورشة . ولكن لا بد على الأقل من انقضاء ربع ساعة .

فصاح مادلين :

ــ ربع ساعة ؟

وكان المطر قد انهمر فى الليلة السابقة ، والأرض زلقة ، وعربة النقل تغوص فى الأرض كل لحظة وتهصر صدر الشيخ بمزيد من القوة ، فمن الجلى أن أضلاعه ستتحطم قدر انقضاء خمس دقائق . ولذا قال مادلين للفلاحين الذين ينظرون :



وكان المطر قد انهمر فى الليلة السابقة ، والأرض زلقة ، وعربة النقل تغوص فى الأرض كل لحظة وتهصر صدر الشيخ بمزيد من القوة ..

ــ مستحيل أن ننتظر ربع ساعة !

ــ هذا ما لا بد منه !

ــ وعندئذ يكون قد فات الأوان ! الا ترون أن العربة تغوص ؟

ــ اللعنة !

فاستطرد مادلين :

ــ اسمعوا ! لم يزل هنـــاك تحت العربة مكان يكفى لتسلل رجل كى يرفعها بظهره . نصف دقيقة فقط تكفى عندئذ لجر الرجل المسكين من تحتها . فهل بينكم أحد لديه ما يكفى من قوة الحقوين والكليتين والقلب ؟ إنى أقدم لمن يفعل هذا خمسة جنيهات ذهبية !

ولم يتحرك من بين الجمع أحد . فقال مادلين :

ــ عشرة جنيهات !

فغض الواقفون ابصارهم ، وغمغم أحدهم :

ــ لا بد أن يكون من يتصدى لهذا خارق القوة . ثم انه سيتعرض للانسحاق !

فقال مادلين :

ــ هيا ! عشرين جنيها !

وساد نفس الصمت . ثم قال أحدهم :

ــ ليست الإرادة الطيبة ما ينقصهم !

فالتفت مادلين ، وعرف فى المتكلم جافير . ولم يكن قد لمحه عند قدومه . وأردف جافير :

ــ ما ينقصهم هو القوة . فلا بد أن يكون رجلا ذا قوة رهيبة من يستطيع رفع عربة كهذه فوق ظهره !

ثم ثبت نظره فى المســيو مادلين وواصـــل كلامه وهو يضغط على كل كلمة يتفوه بها :

ــ يا مسيو مادلين ، أنا لم أعرف قط اللهم إلا رجـــلا واحدا يستطيع أن يصنع ما تطلبه الآن .

وارتجف مادلين .

وأردف جافير فى عدم مبالاة . ولكن من غير أن يحول عينيه عن مادلين :

ــ إنه أحد نزلاء الليمان !

فقال مادلين :

ــ آه !

ــ ليمان طولون .

ــ فاكفهر وجه مادلين ...

ولكن العربة واصلت غوصها ببطء . والأب فوشليفان يشهق ويصرخ :

ــ إنى أختنق ! أضلاعى تتحطم ! عفريتة ! أى شىء ! آه !

ونظر مادلين حوله وقال :

ــ ألا يوجد إذن أحد يريد أن يكسب عشرين جنيهـــا وينقذ حياة هذا الشيخ المسكين ؟

ولم يتحرك أحد من الحاضرين . فقال جافير :

ـــ أنا لم أعرف إلا رجلا واحـــدا يمكن أن يقـــوم بعمل العفريتة ! إنه ذلك المحكوم عليه !

وصاح الشيخ :

ـــ ها هي تحطمني !

فرفع مادلين رأسه . والتقت عيناه بعيني صقر . هما عينا جافير المثبتتان عليه ، ثم نظر إلى الفلاحين الجامدين في أماكنهم وابتسم بأسى . ثم من غير أن يقول شيئا ركع على ركبتيه ، وقبل أن تخرج صيحة الدهشة من أفـــواه الجمع المحتشد كان قد دخل تحت العربة .

وانقضت لحظة انتظار ران فيهـــا الصـــمت . ورأوا مادلين يزحف على بطنه تحت هذا الثقل الباهظ ، ويحاول مرتين عبثا تقريب كوعيه من ركبتيه وصاح الناس :

ـــ مسيو مادلين ! اخرج من هناك !

وقال له الشيخ فوشليفان نفسه .

ـــ اخرج يا مسيو مادلين ! أنا مقضي علي بالهلاك ، فلا تهلك أنت نفسك أيضا !

ولم يجب مادلين . ولهث الحاضرون . وكانت العجلات قد ازدادت غوصا ، فصار مستحيلا على مادلين أن يخرج إن أراد من تحت العربة .

وفجأة رأى الناس الكتلة الهائلة تهتز ، والعربة ترتفع ببطء ، وخرج نصف العجلات من الحفر ، وسمعوا صــوتا مخنوقا يصيح :

ــ أسرعوا ! ساعدونى !

وكان هذا صوت المسيو مادلين وهو يبذل آخر جهده . فسارعوا ، وقد شحذ تفانى رجل واحد شـــجاعة الباقين جميعا . ورفع عشرون ذراعا العربة . وأنقذ فوشليفان .

وخرج مسيو مادلين شاحب اللون ، يتصبب عرقا ، وقد تمزقت ثيابه وتلطخت بالوحل . وبكى الجميع ، وقبل الشيخ ركبتيه وهو يلهج بالدعاء له . أما هـــو فكانت على محياه أمارات عذاب سعيد وسماوى ، وثبت نظره الهادىء على وجه جافير ، الذى لم يتحول نظره عنه .

الفصل السابع

فوشليفان يصبح بستانيا فى باريس

كان فوشليفان قد رصد ركبته عند سقوطه ، فأمر الأب مادلين بنقله إلى مستوصف كان قد أنشأه لعماله فى نفس مبنى مصنعه ، وتشرف على هذا المستوصف راهبتان من أخوات الرحمة . وفى اليوم التالى وجد الشيخ ورقة نقد من ذات الألف فرنك فوق المنضدة بجوار سريره ، ومعها هذه الكلمة بخط الأب مادلين :

ــ لقد اشتريت منك عربتك وحصانك !

أما العربة فكانت محطمة . وأما الحصان فكان ميتا !

وشفى فوشليفان، ولكن بقيت ركبته ملتوية. واستطاع المسيو مادلين بتزكية من الراهبتين ومن خورى الكنيسة أن يعين الرجل بستانيا فى دير للراهبات بحى سانت أنطوان بباريس .

وبعد فترة وجيزة عين المسيو مادلين عمدة . وعندما رأى جافير لأول مرة المسيو مادلين لابسا الوشاح الذى يخوله السلطة الكاملة على المدينة ، أحس تلك الرجفة التى يحسها كلب شم رائحة ذئب تحت ثياب سيده . ومنذ هذه اللحظة صار جافير يتجنبه ما استطاع . وإذا اقتضت واجبات الخدمة وحتمت وجوده مع سيادة العمدة ، كان يخاطبه باحترام عميق جــدا .

وكان هذا الازدهار الذى أضفاه على مدينة « م » الأب مادلين له إلى جانب المظاهر المرئية التى أشرنا إليها ، مظاهر اخرى غير مرئية لم تكن أقل أهمية من الأولى . فعندما يعانى السكان ، وتقل فرص العمل ، وتكسد التجارة ، ويمتنع الممول عن دفع الضريبة بسبب الضنك ويتجاوز المهلة المسموح بها ، تنفق الدولة أموالا كثيرة لإجـــراءات الحجـــز والتحصـــيل بالإكراه . أما عندما يكثر العمل ، ويصير الإقليم فى بحبوحة من العيش والثراء ، تسدد الضرائب بيسر ، ولا تتكلف الدولة إلا القليل . ففى وسعنا أن نقول إن الثراء العام والفقر العام لهما ترمومتر لا يخطىء ، هو مقدار نفقات تحصيل الضرائب . وفى السنوات السبع الأخيرة بمدينة « م » انخفضت نفقات تحصيل الضرائب بمقدار الثلاثة أرباع فى المنطقة كلها ، لذا كانت هذه الدائرة مضرب المثل بين دوائر فرنسا على لسان المسيو فيليل VILLELE الذى كان وزير المالية حينئذ .

وهكذا كان حال الإقليم . عندما عادت إليه فانتين . ولم يكن هناك أحد يتذكرها . ومن حسن حظها أن باب مصنع المسيو مادلين كان أشبه بوجه صديق . فتقدمت إلى المصنع وقبلت للعمل فى ورشة النساء . وكانت المهنة جديدة تمـــاما على فانتين ، فلم تتمكن من البراعة فيها ، وبالتالى لم تستطع أن تكسب من يوم العمل شيئا كثيرا . ولكن هذا القليل على كل حال كان كافيا . وحلت بهذا مشكلتها ، وصارت تكسب معاشها .

الفصل الثامن

مدام فكتيرنيان VICTURNIEN
تنفق ثلاثين فرنكا فى سبيل الأخلاق

ولما رأت فانتين أنها بدأت تعيش ، غمرتها لحظة فرح . فأى نعمة من السماء هبطت عليها إذ تعيش بشرف من كد عملها ! وعادت إليها لذة العمل وتذوقه الحقيقى ، فاشترت مرآة ، واستمتعت بالنظر فيها إلى شبابها وإلى شـــعرها الجميل وأسنانها البديعة ، ونسيت أشياء كثيرة ، ولم تعـد تفكر إلا فى كوزيت ، وفى المستقبل الممكن ، وكادت تشـــعر بالسعادة التامة . واستأجرت حجرة صغيرة وأثثتها بالدين اعتمادا على دخلها من عملها مستقبلا ، وهى بقية من عاداتها القديمة الفوضوية .

ولمـــا كانت لا تستطيع أن تقول إنها متزوجة ، لـــذا حرصت ـــ كما ألمعنا آنفا ـــ على ألا تجرى ذكر ابنتها على لسانها .

وفى هذه الفترة الأولى . كما رأينا ، كانت تؤدى ما عليها لآل تنرديبه بانتظام . ولما كانت لا تعرف من الكتابة إلا التوقيع باسمها ، لذا كانت مضطرة للاستعانة بكاتب عمومى . وكانت تكتب فى أوقات كثيرة ، فلاحظ الناس ذلك عليهـــا ، وبـــدأ التهامس فى ورشة النساء بأن « فانتين تكتب خطابات » وبأنها « تبدو متزينة » .

وليس هناك أشد إصرارا على مراقبة حـــركات المرء وسكناته ممن لا ينظر إليهم . لماذا هذا السيد لا يأتى أبدا إلا إلى السمراء ؟ ولماذا لا يعلق هـــذا الســـيد مفتاحه على المسمار يوم الخميس ؟ ولماذا يسلك دائما فى مساره الشوارع الصغيرة ؟ ولماذا تنزل هذه السيدة دائما من عربتها المكتراة قبل موضع بيتها ؟ ولماذا ترسل فى شراء دفتر ورق الخطابات من محل آخر مع أن محلها مكتظ بهذه الدفاتر ؟ الخ الخ الخ .. فهناك كائنات من البشر مستعدون فى سبيل حل هذه الألغاز — التى لا شأن لهم بها — أن ينفقوا من المال ويبذلوا من الجهد أضعاف ما ينفقونه ويبذلونه فى أعمال الخير . ويفعلون هذا طواعية ، بحثا عن اللذة ، ومن غير أن يكون لفضولهم ثمرة اللهم إلا إشباع الفضول . فهم يتعقبون هذا أو هـــذه أياما متوالية بطولها ، ويتربصون أو يرصدون الحراس عند أركان الشوارع ، وتحت تجويفات الأبواب ، ليلا ، فى البرد وتحت المطر ، ويقدمون الرشاوى للرسل والمندوبين . ويقدمون الخمر للحوذية والخدم والحجاب ، ويشترون ذمة خادمة أو وصيفة أو بواب . ولماذا هذا كله ؟ للا شىء ! لمجرد شهوة الرؤية وسعار المعرفة والنفاذ من الحجب .. وكثيرا ما يترتب على هتك هذه الأستار وفضح هـــذه الأسرار مصـــائب ، ومبارزات ، وإفلاس ، وتدمير بيوت وتحطيم كيان . ولكن هذه الكوارث الجسام تملأ جـــوانح مكتشـــفى تلك الأسرار بالحبور ، مع أنه لا مصلحة لهم فى هذا إلا إشباع الغـــريزة الخاصة بهم . وإنه لأمر يثير الأسى والأسف .

ومن النـــاس من فيهم نزوع إلى الشر غير مدفوعين

إلا بالرغبة فى الكلام . فأحاديثهم فى الصالونات ، وثرثرتهم فى حجرات الانتظار ، أشبه بتلك المـــداخن التى تســـتهلك الخشب بسرعة ، فلا بد لها من كميات كبيرة من الوقـــود . وهذا الوقود ، هو الخوض فى سيرة الناس ، ولو كانوا من الأقربين .

وهكذا راحوا يرقبون فانتين .

وفضـــلا عن هذا كان الكثيرات غيورات من شـــعرها الأشقر الغزير واسنانها البيضاء .

ورصـــدن عن يقين انها ـــ وهى فى الورشـــة بين الأخريات ـــ كثيرا ما كانت تستدير مشيحة عنهن كى تمسح دمعة . وتلك كانت اللحظات التى تفكر فيها فى طفلتها ، ولعلها ايضا كانت تفكر فى الوقت نفسه فى الرجل الذى كانت تحبه .

وإنه لجهد جهيد مضن أن نقطع علائق الماضى المحزنة . .

ورصد زميلاتها ايضا أنها كانت تكتب الرسائل مرتين فى الشهر على الأقل، وتوجه رسائلها دائما إلى نفس العنوان، وكانت هى التى تدفع رسوم إرسالها بنفسها فى مكتب البريد. وتمكنت الزميلات البارعات من الحصول على هذا العنوان :

ـــ المسيو تنردييه ، صاحب نزل فى مونفرمى . . .

وفى الحانة أمكن حمل الكاتب العمومى ـــ بعد أن أطبق عليه السكر ـــ على أن يثرثر ، فهو رجل متقدم فى السن ، محب للشراب ، ولكنه لم يكن يملك أن يملأ جوفه بالنبيذ الأحمر

إلا إذا افرغ ما فى جوفه من أسرار الناس . وقصارى القول أن المهتمين بالأمر عرفوا أن لفانتين طفلة .

وقامت امرأة فضولية بالرحلة إلى مونفرمى على نفقتها الخاصة . وهناك تحدثت إلى آل تنردييـــه ، وقالت عنـــد عودتها :

— لقد انفقت خمسة وثلاثين فـــرنكا . ولكن قلبى استراح ! فقد رأيت الطفلة !

وكانت هذه الفضولية تدعى مدام فكتيرنيان ، وهى حامية حمى الفضيلة فى الدنيا كلها ! وعمرها ست وخمسون سنة ، وتجمع بين قناعين أحدهما قناع القبح والدمامة والآخر قناع الشيخوخة . صوتها كصوت الماعز ، وذهنها كذهن التيس فى الانشغال بالنزوات ! وقد تدهش إن علمت أن هذه العجوز كانت شابة فى يوم من الأيام . وفى أوج شبابها ، سنة ١٧٩٣ تزوجت من راهب فر من الدير وانضم إلى اليعقوبيين. وكانت عجفاء ، حادة الملامح والطبع كأنما هى حيوان شوكى، وتكاد تكون أيضا حيوانا ساما ، ثم مات عنها زوجها الراهب الذى سامها العذاب وتركها أرملة . وعند عودة الملكية إلى فرنسا انقلبت من ثورية إلى متعصبة دينية ، وبلغ من مبالغتها فى هذا التعصب أن القسوس اغتفروا لها زواجها من راهب. وكان لها عقار ملأت الدنيا ضجة وطنينا عندما وهبته لمؤسسة دينية . وصارت موضع الرعاية والتكريم فى أسقفية أراس ARRAS . وهذه هى مـــدام فكتيرنيان التى ســـافرت إلى مونفرى وعادت تعلن على رءوس الأشهاد :

ـ لقد رايت الطفلة بعينى راسى !

وقد استغرق هذا كله وقتا ، فكان قد انقضى عام على عمل فانتين فى المصنع ، عندما سلمتها ذات صباح المشرفة على الورشة خمسين فرنكا من طرف سيادة العمدة وقالت لها إنها لم تعد عاملة فى هذه الورشة ، وطلبت إليها باســم سيادة العمدة أن تبادر بمغادرة الإقليم .

وكان هذا فى نفس الشهر الذى طلب فيه آل تنردييه زيادة الإتاوة إلى خمسة عشر فرنكا ، بعد أن زيدت من قبل بإلحاح منهما إلى اثنى عشر فرنكا .

واسقط فى يد فانتين ، فهى لا تستطيع مغادرة الإقليم ، لأنها مدينة بايجار حجرتها وبثمن الأثاث ولم تكف الخمسون فرنكا للوفاء بديونها هذه . وغمغمت بضع كلمات توسل ، ولكن المشرفة قالت لها إن عليها أن تخرج فورا من الورشة . ثم إن فانتين لم تكن إلا عاملة غير بارعة ، فخرجت من الورشة تتعثر فى الخزى والقنوط وعادت إلى حجرتها . لقد عـــرف الكافة إذن بأمر خطيئتها !

ولم تجد فى نفسها القدرة على أن تقول كلمة واحدة . ونصحها بعض الناس بالتوجه لمقابلة سيادة العمدة ، ولكنها لم تجسر . فالعمدة أعطاها خمسين فرنكا ، لأنه رجل طيب ، وطردها من العمل لأنه رجل عادل وبار . فأذعنت لهذا القرار .

الفصل التاسع
نجاح مدام فكتيرنيان

لقد افلحت ارملة الراهب إذن فى شىء ما !

ولكن المسيو مادلين لم يكن قد عرف شيئا عن هذا كله. فما حدث كان من نوع ذلك التوافق بين الأحداث التى تمتلىء به الحياة . فقد كان من عادة المسيو مادلين الا يدخل ابدا تقريبا إلى ورشة أو « عنبر » النساء .

وكان قد وضع على راس هذه الورشة عانسا كان القس قد اشار عليه بها ، وكانت له ثقة تامة فى هذه المشرفة، وهى شخصية محترمة حقا ، وحازمة ومنصفة ونزيهة تفيض بالرحمة التى تتمثل فى العطاء ، ولكنها لم تؤت ذلك اللون من الرحمة الذى يقوم على الفهم وعلى المغفرة والصفح والسماحة . وكان المسيو مادلين قد فوضها فى كل شىء . وافضل الناس مضطرون لكثرة مشاغلهم أن يفوضوا سواهم فى كثير من الأمور ومنحهم سلطتهم . وبموجب هذه السلطة الكاملة ، وعن اقتناع بأنها خيرا صنعت ، قامت هذه المشرفة بالتحقيق فى هذه القضية ، وفصلت فيها بحكمها ، فأدانت فانتين ونفذت فيها العقوبة .

أما الخمسون فرنكا فقد منحتها من مبلغ أودعه لديها المسيو مادلين للصدقات ومساعدة العاملات ، ولم تكن تؤدى عنه حسابا مفصلا .

وعرضت فانتين أن تعمل خادمة فى هذا الإقليم . وتنقلت من بيت إلى آخر تطرق الأبـــواب ، ولكن ما من احـــد كان يريدها . ولم تستطع أن تغادر المدينة ، فهى مدينة لتاجـــر الأثاث القديم المستعمل بثمن ما اشترته منه . ويا له من أثاث! فقد قال لها :

ــ إن غادرت المدينـــة جعلتهم يلقـــون القبض عليك كسارقة !

ومالكَ البيت الذى كانت مدينة له بالإيجار ، قال لها :

ــ أنت شابة وجميلة . وفى وسعك دفع الإيجار !

فقســـمت الخمســـين فرنكا بين المـــالك وتاجر الأثاث المســـتعمل ، وردت إليه ثلاثـــة أرباع أثاثه ، فلم تستبق إلا الضرورى . وها هى بدون عمل ، وبدون وضع مستقر ، وليس فى حوزتها إلا سريرها . وهى مدينة فضلا عن هـــذا بنحو مائة فرنك .

وراحت تحيك اقمصة خشنة للجنود فى حامية المدينة ، وتكسب من هذا اثنى عشر صلديا فى اليوم . وكانت ابنتهـــا تكلفها عشرة . وفى ذلك الحين بدات تقصر فى أداء الإتاوة لآل تنرديه .

ولكن امراة عجوزا كانت تشعل لها شمعتها عندما تعود فى المساء علمتها فن الحياة فى الفاقة والتعاسة . فهناك وراء مرحلة العيش على القليـــل ، مرحلة العيش على لا شيء .



وراحت تحيك أقمصة خشنة للجنود فى حاملة المدينة ،
وتكسب من هذا اثنى عشر صـــلدياً فى اليوم ..

فكأنما المرحلتان حجرتين : الأولى معتمة ، ولكن الأخــرى مظلمة كل الإظلام .

وتعلمت فانتين كيف تستغنى تمام الاستغناء عن النار فى الشتاء . وكيف تستغنى عن عصفور غرد فى القفص لأنه يحتاج إلى طعام مهما كان زهيدا . وكيف تجعل من تنورتها غطاء لها ، وكيف تصنع من غطائها تنورة ، وكيف تســتبقى شمعتها بأن تتناول طعامها فى ضوء النافذة المواجهة لهــا . فلا نهاية لما يمكن أن نتعلمه من التدبير من بعض النفوس التى ساخت فى الفاقة والفضيلة ، بحيث تقتصر أكبر نفع ممكن من الصولدى الواحد . وقد تعلمت فانتين هذا الفن من جارتها العجوز ووجدت فى ذلك بعض العزاء والشجاعة .

وقالت فى تلك الفترة لإحدى جاراتها :

ـــ عجبا ! انى لأقول لنفسى إنى لا أنام إلا خمس ساعات وأشغل باقى الوقت كله فى الحياكة ، وأكاد أحصل من هذا على الخبز . ثم إن المرء عندما يكون حزينا يقل إقباله على الأكل . وهكذا أستمد جانبــا من غــذائى من كسرة خبز ، وأستمد الجانب الآخر من أحزانى .

وفيما هى فى هذا الكرب تمنت لو كانت ابنتها معها ، فتكون مصدر سعادة لها بلا حدود . وفكرت فى استقدامها . ولكن كيف هذا ؟ اتأتى بها لتقاسمها العوز . ثم هى مدينــة بمتأخرات مستحقة لآل تنردييه ! فكيف تفى بهذا الدين ؟ ثم الرحلة ذهابا وإيابا ! من أين تراها تحصل على نفقاتها ؟

وكانت العجوز التى أعطتها ما يمكن أن نسميه دروسا فى الفاقة ، قديسة اسمها مرجريت . متدينة التدين الحقيقى ، فقيرة ولكنها رحيمة بالفقراء ، بل وبالأغنياء أيضا ! وكانت تعرف من القراءة كتابة اسمها بهجاء غير صحيح ، مؤمنة بالله . وهذا كل حظها من العلم ! وكانت تعتقد أنه سيأتى يوم تسود هذه الفضائل فى عليين . فحياتنا لها غد مأمول .

وفى الفترة الأولى من محنتها كانت فانتين تشعر بخزى شديد حتى أنها لم تجسر على الخروج . وعندما تكون فى الشارع يخيل إليها ان الناس يلتفتون ليرمقوها من وراء ظهرها ، ويشيرون إليها بأصبعهم . وكان الناس جميعا ينظرون إليها بالفعل وهى مارة بهم ، ولكن ما من أحد منهم كان يحييها . وكان هذا الاحتقار الحاد البارد من جانب المارة ينفذ إلى لحمها وإلى روحها ، كأنه جمرة من نار !

وفى المدن الصغيرة تغدو المرأة التعسة وكأنها فريسة عارية لسخرية الكافة وفضولهم . وليس الحال هكذا فى باريس ، فهناك على الأقل لا يعرفها أحد ، وهذا الغموض كأنه ثوب يسترها ! آه كم تمنت لو ذهبت إلى باريس ! ولكن هذا كان من المستحيلات .

لذا كان عليها أن تعود نفسها على الاحتقار ، كما تعودت الحاجة . وشيئا فشيئا اتخذت قرارها، وبعد شهرين أو ثلاثة نفضت عنها الشعور بالخزى وراحت تخرج كأن شيئا لم يحدث . وصارت تقول لنفسها : هذا لا يهمنى !

وجعلت تروح وتغدو عالية الراس ، وعلى شفتيها ابتسامة مريرة ، وواتتها الجسارة .

واحيانا كانت مدام فكتيرنيان تراها من نافذتها وهى مارة فتحس أنها نجحت فى وضعها فى مكانها الصحيح ، وتهنىء نفسها . وللأشرار نوع من السعادة أسود اللون !

وانهك الانكباب على العمل فانتين ، وزادت عليها وطأة السعال الجاف ، وكانت تقول أحيانا لجارتها مرجريت :

ــ المسى يدى ، كم هما ساخنتان !

ولكن فى الصباح عندما كانت تمشط شعرها بمشط قديم مكسر الأسنان وتجده ناعما كالحرير ، كانت تمر بها لحظة من السعادة بهذه النعمة !

الفصل العاشر
بقية النجاح

كانت قد طردت من عملها قرب نهاية الشتاء ، وانقضى الصيف . ولكن الشتاء عاد . والنهار فيه قصــير . ولذا فالعمل اقل . وفى الشتاء لا ضياء ، ولا حرارة ، ولا ظهر ، فالصباح يلامس المساء ، وهناك الغسق والضباب ، والنافذة فيه رمادية ، والرؤية غير واضحة . والسماء كأنها كرة . ياله من فصل فظيع ! فالشتاء يحول ماء السماء إلى حجارة ، كما يحول قلوب البشر إلى حجارة . وأخذ دائنوها يطاردونها.

كانت فانتين تكسب أقل من القليل ، فتضخمت ديونها. وآل تنردييه الذين تأخرت مستحقاتهم يلاحقونها بالرســائل التى يكربها مضمونها . وذات يوم كتبوا إليها أن صغيرتها كوزيت عارية تماما والبرد شديد ، وأنها بحاجة إلى تنورة من الصوف ، ولا بد للأم من إرسال عشرة فرنكات على الأقل لشرائها . وتلقت هذه الرسالة، وكورتها فى يدها طول النهار، وفى المساء دخلت محل حلاق عند زاوية الشارع ، وخلعت مشطها ، فتهدل شعرها الأشقر البديع إلى كليتيها ، وصاح الحلاق :

ـــ ما أجمله من شعر !

فقالت له :

ـــ كم تعطينى ثمنا له ؟

ــ عشرة فرنكات !

ــ قصه اذن !

واشترت تنورة من التريكو بعثت بها إلى آل تنردييه. واستشاط آل تنردييه غضبا ، فقد كانوا يريدون نقودا . واعطوا التنورة إلى ابنتهما الكبرى ابونين ، وظلت القبرة الصغيرة ترتجف من البرد .

وقالت فانتين فى نفسها :

ــ ها هى ابنتى لم تعد مقرورة . لقد كسوتها بشعرى!

وصارت تلبس قلنسوات صغيرة مستديرة تخفى راسها المجزوزة ، وكانت تبدو فيها جميلة رغم كل شىء .

وكانت خواطر معتمة تدور فى قلب فانتين . فقد حز فى نفسها فقدان شعرها الذى كانت تتيه به وتزهو ، وصارت تضمر الحقد والمقت لكل من حولها . وكانت تشارك الناس جميعا اجلالهم للأب مادلين . ولكن مع احساسها المتكرر بأنه هو الذى طردها ، وانه كان سبب ما هى فيه من شقاء وبلاء ، انتهى بها الأمر إلى كراهيته هو ايضا ، بل كرهته بصفة خاصة . وعندما كانت تمر امام المصنع عندما يكون العمال أمام الباب ، كانت تتظاهر بالضحك والغناء . وقالت عاملة عجوز عندما رأتها تضحك وتغنى على هذه الصورة :

ــ هاكم فتاة ستنتهى إلى شر مآل .

وفعلا اتخذت لها عشيقا ، هو أول من التقت به . وكان رجلا لم تحببه . اتخذته عشيقا على سبيل التحدى ، وقلبها

يغلى بالغضب . كان رجلا بائسا ، موسيقيا متســولا ، وصعلوكا ، يضربها ، وفارقها كما التقى بها ، فى تقزز .

كانت تعبد طفلتها .

وكلما انحدرت . كان كل شىء يزداد من حولها قتامة ، ولكن يزداد سطوع نجم ذلك الملك الطاهر الصغير فى أعماق نفسها . وتقول لنفسها :

ــ عندما أغدو ثرية . ستكون ابنتى كوزيت معى .

ثم تضحك . ولم يكن السعال يفارقهــا ، ويتصــبب ظهرها عرقا .

وذات يوم تلقت من آل تنردييه خطابا هذا مضمونه :

ــ كوزيت مريضة . مصابة بمرض منتشر فى الإقليم : حمى عسكرية كما يقولون . ولا بد لها من عقاقير غالية الثمن . وهذا يرهقنا ولم نعد قادرين على دفع ثمنها . فما لم ترسلى إلينا أربعين فرنكا قبل مرور ثمانية أيام ، ماتت الصغيرة !

وما ان طالعت هذه الرسالة حتى قهقهت بالضحك ، وقالت لجارتها العجوز :

ــ آه ! ما أطيب قلبهما ! أربعون فرنكا ! يعنى جنيهين ذهبا ؟ ومن اين يحسبان انى يمكن ان أحصل عليهما . ما أغبى هؤلاء الفلاحين !

ومع هذا اتجهت إلى السلم ، وتحت كوة هناك أعادت

قراءة الرسالة . ثم هبطت السلم وخرجت تجرى وتقفز ، وهى تضحك طول الوقت .

وقابلها شخص ، فسألها متعجبا :

ـ ماذا جرى لك حتى بلغ بك الابتهاج هذا المبلغ ؟

فأجابته :

ـ إنها سخافة كتبها إلى أناس من الريف . يطلبون منى أربعين فرنكا . تعسا لهم من فلاحين !

وعند مرورها من الميدان رات جمعا محتشدا حول عربة غريبة الشكل ، وقد وقف فوقها رجل يخطب الناس فى ثياب حمراء . وكان هذا الرجل حكيم اسنان متجولا ، يعرض على الناس أطقم أسنان كاملة ، وأنواعا من المساحيق والأشربة .

واختلطت فانتين بالجمع الواقف هناك وهى تضحك مثل الآخرين من تلك الخطبة التى حفلت بتعبيرات مبتذلة للسوقة وعبارات سوية للناس المحترمين . ورأى خالع الأسنان هذه الفتاة الجميلة التى تضحك ، فصاح فجأة :

ـ لكأسنان جميلة يا فتاة. ولو بعتنى سنيك الأماميين، لأعطيتك جنيها ذهبيا مقابل كل واحد منهما .

وصاحت فانتين :

ـ يا للفظاعة !

وزمجرت عجوز درداء (بلا أسنان) كانت واقفة :

ـ جنيهان ذهبيان ! ما اسعد حظها !

ولاذت فانتين بالفرار وسدت أذنيها حتى لا تسمع صوت الرجل الذى صاح بها :

ـــ فكرى يا جميلة ! جنيهان ذهبيان ! مبلغ طيب . وإذا طاوعك قلبك وطابت بهذا نفسك تعالى هذا المساء إلى نزل « ظهر السفينة الفضى » تجدينى هناك !

ورجعت فانتين إلى البيت غاضبة أشد الغضب ، وروت الأمر لجارتها الطيبة مرجريت ثم قالت :

ـــ أتعقلين هذا؟ أليس هذا الرجل شنيعا؟ كيف يتركون رجلا كهذا يطوف الإقليم ؟ يريد أن يخلع لى السنين الأماميين ! ولكنى أصبح عندئذ فظيعة كريهة ! إن الشعر ينبت ثانية ، أما الأسنان ! آه ! يا للرجل الوحش ! إنى لأفضل على هـــذا أن ألقى بنفسى من الطابق الخامس إلى الأرض ، ورأسى إلى أسفل ! وقال لى بصفاقة إنه سيكون هذا المساء فى « ظهر المركب الذهبية » .

فسألتها مرجريت :

ـــ وكم عرض عليك ؟

ـــ جنيهين .

ـــ يعنى أربعين فرنكا .

فقالت فانتين :

ـــ نعم . يعنى أربعين فرنكا .

وظلت غارقة فى التفكير ، ثم أقبلت على عملها . ولكن بعد ربع ساعة تركت حياكتها وذهبت لتعيد قراءة الخطاب الذى وصلها من آل تنردييه على السلم .

وعندما عادت قالت لمرجريت التى كان تعمل بقربها :

ــ ما هى الحمى العسكرية ؟ أتعرفينها ؟

فقالت الفتاة العجوز :

نعم . انها مرض .

ــ إنه يحتاج إذن إلى عقاقير كثيرة .

ــ أوه . عقاقير هائلة !

ــ ومن أين يأتى للناس هذا المرض ؟

ــ هو مرض يصيب الناس هكذا .

ــ ويصيب الأطفال أيضا ؟

ــ يصيب الأطفال بصفة خاصة .

ــ وهل ينتهى بالموت ؟

فقالت مرجريت :

ــ فى كثير من الأحيان .

وخرجت فانتين إلى السلم لتعيد قراءة الخطاب .

وفى المساء نزلت ، وشوهدت تتجه صـــوب شـــارع باريس حيث توجد الفنادق .

وفى صباح اليوم التالى ، عندما دخلت مرجريت حجرة فانتين قبل طلوع النهار ــ لانهما كانتا تعملان دائما معا وبذلك لا تشعلان إلا شمعة واحدة لهما معا ــ فوجدت فانتين جالسة على سريرها شـــاحبة مقرورة كالثلج . ولم تكن قد رقدت طول الليل ، وقلنسوتها ملقاة فوق ركبتيها . وكانت الشمعة قد احترقت طول الليل فاوشكت على التلاشى .

ووقفت مرجريت على عتبة الباب ، وقد تسمرت فى مكانها امام هذه الفوضى الشاملة وصاحت :

— رباه ؟ لقد احترقت الشمعة بأكملها ! لقد حدثت امور جسام إذن !

ثم نظرت إلى فانتين التى اتجهت إليها براسها الخالى من الشعر .

وكانت فانتين قد شاخت عشر سنين منذ الليلة الماضية . وصاحت مرجريت !

— يا إلهى ! ماذا بك يا فانتين ؟

فأجابتها فانتين :

— ليس بى شىء . بالعكس ! طفلتى لن تموت من هذا المرض الفظيع لافتقارها إلى العلاج ! انا راضية ...

وفيما هى تقول ذلك ارت العجوز جنيهين ذهبيين كانا يلمعان فوق المنضدة .

فقالت مرجريت :

— رباه ! إنها لثروة ! من اين حصلت على هذين الجنيهين الذهبيين ؟

فأجابتها فانتين :

— حصلت عليهما ...

وابتسمت . وكانت بقية الشمعة تضىء محياها ، فاذا ابتسامة دامية . واللعاب المدمم الاحمر يلطخ ركنى ثغرها . فقد كان فى مقدمة فمها ثقب أسود .

كان السنان منزوعين .

وارسلت الأربعين فرنكا إلى مونفرى .

ولكن كانت تلك مجـرد حيلـة من الاعيب آل تنردييه للحصول على نقود . فكوزيت لم تكن مريضة .

والقت فانتين بمرآتهـا من النافذة . وكانت قد تركت حجرتها الصغيرة بالطابق الثانى منذ زمن طويـل وأقامت فى علبة (سندرة) اسفل السقف المائل ، حيث يلتقى منحدر السقف بالأرض وترتطم به فى كل لحظة . فالفقير لا يستطيع أن يمضى إلى نهاية حجرته إلا إذا انحنى ، ولم يعـد عندها سرير ، وبقيت لديها خرقة كانت تتخذها غطاء ، وحشـية من القش على الأرض كانت ترقد فوقها . ولديها كرسى منزوع القش . وفى الركن اصيص به شجرة ورد منسبة جف عودها ، ووعاء به ماء كان يتجمد فى الشتاء ، وكانت مستويات الماء المتفاوتة على جدرانه تتبقى منها دوائر من الجليد. لقد فقدت الخزى ، وها هى فقدت الدلال والغندرة . حتى أنها صارت تخـرج بقلنسوة قذرة . ولم تعد ترتق ثيابهـا الداخلية إما لضـيق الوقت او عن عدم مبالاة . وكان حذاءها فى حـالة سـيئة للغاية . وكان الدائنون يتشـاجرون معهـا باسـتمرار ، ولا يتركانها فى هدوء يوما واحدا : كانت تلقاهم فى الشـارع ، او تقابلهم على السـلم . وكم من ليلة قضـتها باكية مؤرقة شاردة . وصارت عيناها شـديدتى اللمعان ، وصـار الم مستمر يخز كتفها ، وهى دائمة السعال . وينصب غضـبها ومقتها كله على الأب مادلين . ولكنها لا تشـكو لأحد . بل

كانت تشتغل بالحياكة سبع عشرة ســـاعة فى اليوم . ولكن متعهد توريد الملابس للسجون ، وكانت تعمل لحسابه ، لم يلبث ان خفض الأجر ، بحيث هبط أجرها إلى تسعة صلديات فى اليوم . فسبعة صلديات لقاء عمل كادح دائب سبع عشرة ساعة فى اليوم ! وزاد دائنوها قسوة وضراوة . وكان تاجر الأثاث المستعمل الذى استرد معظم أثاثه يقول لها دائما :

ـــ متى تسددين دينك لى يا عاهرة ؟

ماذا يريدون منهـــا إذن ؟ لقد شعرت انهـــا مطاردة ، وصارت تحس انها حيوان تتبعه كلاب الصيد بلا رحمـــة ؛ فلا عجب تنقلب كائنا شرسا متوحشا .

وحوالى هذا الوقت كتب إليها تنردييه أن صبره طال حتى نفد ، وأنه عاملها بكل طيبة ، ولكن لا بد له من الحصول على مائة فرنك فورا ، وإلا طرد الصغيرة المسكينة كوزيت ، وهى لم تزل فى دور النقاهة من مرضها الخطير ، لتتشرد فى البرد القارص فى الشوارع ، معرضة للهلاك جوعا وبردا .

وقالت فانتين فى نفسها :

ـــ مائة فرنك ؟ ولكن كيف الســـبيل إلى كســـب مائة صلدى ـــ لا مائة فرنك ؟

ثم قالت أخيرا :

ـــ فلنبع ما تبقى !

ولم يكن تبقى لها شىء سوى حطام جسدها .

وهكذا غدت المنكودة مومسة عمومية

الفصل الحادى عشر

الرب يخلصنا

وما هى حكاية فانتين هذه ؟ إنها قصــة شراء المجتمع لجارية .

وما السبب ؟

إنه الفاقه ! إنه الجوع والبرد والوحشــة والهجر . وإنها لصفقة تعسة ! تباع فيها روح بشرية لقاء كسرة خبز . البائع فيها هو الفاقة . والمشترى فيها هو المجتمع !

إن القانون السماوى يحكم حضارتنا اسما ، ولكنه لم ينفذ بعد إلى صميمها . ويقــال إن الرق قــد اختفى من الحضارة الأوربية . وهذا خطأ ! فالرق لم يزل موجــودا . ولكنه لم يعد جاثما إلا على صــدر المرأة ، واسمه الحديث هو البغاء !

إنه يجثم على صدر المرأة ، وينتهك ضعفها . ويفترس رشاقتها وجمالها وامومتها . وليس هذا عارا يسيرا ووصمة هينة للبشرية .

وفى المرحلة التى وصلت إليها احوال فانتين ، لم يكن قد بقى لها من جمالها السابق إلا اقل القليل . وغدت حجارة صماء لا حياة فيها حين تحولت إلى وحل . فكل من لمســها

أحس قشعريرة البرد . وعندما تمر أمام الناس تتجاهلهم ، فهى صورة للعار والصرامة معا . والحياة والمجتمع قالا لها كلمتهما الأخيرة ، واصابها اسوا ما يمكن ان يصيبها . وقد تحملت كل شيء ، وتألمت من كل شيء ، ونزلت عن كل شيء ، وفقدت كل شيء ، وبكت كل شيء ، وصارت مستسلمة ذلك الاستسلام الذى يشبه عدم المبالاة مثلما يشبه الموت النعاس. ولم تعد تتحاشى شيئا ، أو تخشى شيئا . فلتسقط عليها كل السحب وليجرفها المحيط ! انها كالغريقة فما خوفها من البلل؟

هذا ما اعتقدته . ولكن المرء يخطيء إن ظن انه وصل إلى قاع المحن الذى ليس بعده قاع . فليس يعرف ما يخبئه لنا القدر غدا إلا علام الغيوب . وهو الله وحده .

الفصل الثانى عشر

تبطل المسيو بماتبوا BAMATABOIS

فى جميع المدن الصغيرة ، وفى مدينة «م» على الخصوص فئة من الشبان ينفقون ألفا وخمسمائة جنيه إيرادا فى الريف بنفس الأســـلوب الذى يلتهم به أمثالهم مائتى ألف فرنك فى السنة إنهم أفراد من نوع خامل طفيلى . يملكون شــيئا من الأرض الزراعيـــة ، وفيهم شىء من البــلاهـــة ، وشىء من الفكاهة ، بحيث يبدون أجلافا فى أى صالون ، ولكنهم يخالون أنفسهم سادته من العلية فى الحانة ، ويتشدقون بالكلام عن مراعيهم ، وعن غاباتهم ، وعن فلاحيهم ، ويصفرون للممثلات فى المسرح ليثبتوا أنهم من أهل الذوق الرفيع ، ويتشاجرون مع ضباط الحامية ليثبتوا أنهم من رجال الحرب ، ويقبلون على الصيد ، وعلى التدخين ، ويتشممون الطبـــاق ، ويلعبون البليardo ، ويتأملون المسافرين وهم يهبطون من الحافلات ، ويعيشون فى المقهى ، ويتغدون فى النزل ، ويصحبهم كلب يأكل العظام تحت المائدة ، وعشيقة تضع الأطباق فوقها ، ويدققون فى إنفاق كل صلدى ، ويغرقون فى اتبـــاع موضات الأزياء ، ويعجبون بالمآسى ، ويحتقرون النســـاء ، ولا يقومون بأى عمل ، ولا فائدة منهم ، وأضرارهم هينة مثلهم .

فلو كان المســـيو فليكس توموليبيس بقى فى الريف ولم ير باريس قط ، لكان واحدا من هؤلاء .

ولو كانوا أثرى مما هم لقيل عنهم إنهم من أهل الأناقة . ولو كانوا أفقر ممــا هم لقيل عنهم انهم « تنابلة » . أما هم فهمببساطة « متبطلون » . ومن بين هؤلاء المتبطلين أفــراد مملون ، وملولون ، ومغرقون فى الخيــال ، وبعضهم غريبو الاطوار مضحكون .

وفى ذلك الحين كان المتــأنق من هؤلاء له باقة كبيرة ، ورباط عنق كبير ، وساعة لها سلسلة ذهبية ، وصدار ملون أو اكثر من صدار بعضها فوق بعض ، وبدلة على آخر طراز وحذاء له توكة ، وفى وجهه شــارب ، وفى حذائه مهماز ... ومتأنق الريف يعنى بأن يكون شاربه ضخما ومهمازه أطول !

وكانت هذه بعينهــا فترة صراع جمهوريات أمريكــا الوسطى ضد ملك أسبانيا ، أو صراع بوليفار BOLIVAR ضد موريلو MORILLO . فكانت القبعــات ذات الطنف الصغير تدل على الملكيين ، اما المتحررون فيلبسون قبعات لها طنف كبير . وكانت قبعات النــوع الأول تسمى موريلو ، وقبعات النوع الثانى تسمى بوليفار .

وبعد انقضاء ثمانية أو عشرة أشــهر على مارويناه فى الصفحات السابقة ، وفى أوائل شهر يناير سنة ١٨٢٣ ، فى مســاء يوم تســاقط فيه الثلج ، كان أحــد هؤلاء المتأنقين المتبطلين ،يرتدى «الموريلو» (شعار الملكيين) ومعطفا كبيرا من النوع الذى يكمل فى ليالى الشتاء الذى على آخــر طراز — كان هذا الشخص جالسا فى المقهى يضايق مخلوقة تطوف بذلك الشارع فى ثوب للرقص واسع الفتحات وعلى رأسها

زينة من الأزهار ، وتقف أمام واجهة مقهى الضباط . وكان هذا المتأنق يدخن ، لأن هذه كانت هى الموضة .

ولكما مرت أمامه هذه المرأة أرسل إليهـــا مع دخـــان سيجاره كلمة ساخرة يخالها فكهة مرحة ، مثل :

ــ كم أنت قبيحة ! .. لماذا لا تغطين وجهك ؟ ـ ليست لك أسنان ! الخ الخ ...

وكان هذا السيد يسمى المسيو بماتبوا . وهذه المرأة كالشبح تروح وتغدو فوق الثلج ولا ترد عليه ، ولا تنظر إليه ، وراحت تواصل سيرها فى صمت تام فى انتظام دقيق يعيدها كل خمس دقائق إلى مرمى قذائف سخريته ، وكأنها جنـــدى محكوم عليه بالجلد . واغتاظ هـــذا المتبطل الكسول لعـــدم مبالاتها ، فانتهز فرصة استدارتها وتقدم من خلفهـــا بخطى مختلسة كأنه الذئب ، وهو يكتم الضحك ، وانحنى فتناول من الأرض قبضة من الثلج رماها فجأة على ظهرهـــا من فتحـــة الثوب ، فيما بين الكتفين العاريتين فأطلقت الفتاة صرخة حادة واستدارت إليه ووثبت عليه كالفهد ، وغرست أظافرها فى وجهه وهى تكيل له أقذع الألفاظ والسباب ، وكانت هـــذه القذائف من الشتائم تندفع محملة برائحة الشراب الرخيص من فمها الذى ينقصه السنان الأماميان . فقد كانت هذه المرأة هى فانتين .

وعلى صوت الضجة خرج الضباط يتزاحمون من المقهى . وتجمع المارة ، فتكونت حلقات كبيرة ضاحكة تصفق وتتصايح



وانحنى فتناول من الأرض قبضة من الثلج
رماها فجاة على ظهرها من فتحة الثوب ..

حول هذين المخلوقين المتصارعين بعنف بحيث لا تميز فيه المرأة من الرجل . وقد وقعت قبعة الرجل على الأرض ، وراحت المرأة تضربه بيديها ورجليها ، وقد وقعت قلنسوتها فصارت بلا شعر وبلا أسنان . ووجهها مكفهر بثورة الغضب الجائح .

وفجأة خـــرج من وســـط الجمع رجل طويل القامة . وامسك بالمرأة من ثوبها الساتان الملطخ بالوحل ، وقال لها :

ــ اتبعيني !

فرفعت المرأة رأسها ، وسكت صوتها الغاضب فجأة . وارتجفت رجفة رعب هائلة . فقـــد عرفت فى هـــذا الرجل الطويل جافير .

وانتهز الرجل المتأنق الفرصة ونجا بنفسه لائذا بالفرار.

الفصل الثالث عشر

حل بعض مسائل الشرطة المحلية

ابعد جافير الحاضرين ، وحطم الحلقة ، ثم سار بخطى واسعة إلى مكتب الشرطة القائم فى نهاية الميدان ، وهو يجر وراءه البائسة . وانقادت له بصورة آلية . فلا هى ولا هو نطقا بأى كلمة . وتبعهما حشد من الناس وهم يتفكهون بمزاح ثقيل ، فقمة التعاسة مناسبة لدى الغوغاء للكلام النابى .

ولما وصل جافير إلى مكتب الشرطة — وهو عبارة عن قائمة منخفضة السقف جيدة التدفئة ، ويحرسها شرطى — فتح الباب الزجاجى المحصن بالقضبان والمفضى إلى الشارع، ودخل مع فانتين وأغلق الباب وراءه ، فخاب أمل الفضوليين الذين صاروا يشبون على أطراف الأصابع لينظروا من الزجاج ، لعلهم يرون شيئا مما يدور بالداخل . والفضول نوع من النهم . والرؤية نوع من الالتهام .

ما إن دخلت فانتين حتى القت بنفسها فى ركن وجمدت وخرس لسانها ، مقعية كأنها كلبة خائفة .

وجاء جندى من الحرس بشمعة مشتعلة فوضعها على منضدة . وجلس جافير وأخرج من جيبه ورقة مدموغة وشرع يكتب .

وهذه الفئة من النساء تضعها قوانيننا تحت رحمة

الشرطـــة بالكلية ، بحيث تستطيع الشرطـــة أن تصنع بهن ما تشاء ، وتصادر على هواها مهنتهن وحريتهن فى آن واحد. وكان جافير صارما ، ووجهه جادا ولا ينم على أى انفعال ، ولكنه كان شديد الانشغال فى الوقت نفسه ، فهو فى لحظة من اللحظات التى يمارس فيها بكل ذمة وتدقيق صـــارم سلطته الأمنية الرهيبة . إنها لحظة يحس فيها كرسيه وكأنه منصة القضاء . فهو يحكم . يصدر الحكم ويأمر بتنفيذه . ولذا فقد راح يستجمع كل ما فى ذهنه من أفكار حـــول المهمة العظيمة التى يقوم بها الآن . وكلما تمعن فى حالة هذه الفتاة ، شعر باتقاد ثورته واستنكاره . فما من شـــك عنـــده فى انه رأى بيعينى راسه جريمة ترتكب . رأى ، هنـــاك فى الشـــارع ، المجتمع ممثلا فى صاحب أملاك وناخب تهينه وتهاجمه مخلوقة من الحثالة . رأى مومسة بغيا تعتدى على بورجوازى . لقد رأى هذا بعينيه . وراح جافير يكتب فى صمت .

ولما انتهى من الكتابة وقع المتقرير بامضائه ، وطـــوى الورقة وقال لرقيب المحضر وهو يسلمها له :

ـــ خذ ثلاثة رجال معك واذهب بهذه الفتاة إلى الحبس.

ثم التفت إلى فانتين وقال :

ـــ ستبقين فى الحبس ستة أشهر !

فارتجفت المسكينة التعسة وصاحت :

ـــ ستة أشهر ؟ ستة أشهر فى السجن ؟ ســـتة أشهر أتقاضى فيها سبعة صلديات فى اليوم؟ لكن ماذا سيكون من أمر

كزيت ! ابنتى ! ابنتى ! ولكنى لم أزل مدينة لآل تنردييه بأكثر من مائة فرنك يا سيدى المفتش . أتعرف هذا ؟

وراحت تزحف فوق بلاط الأرض الذى بللته احذية الرجال الموحلة من غير ان تنهض ، وقد ضمت يديها ، وركعت على ركبتيها . وانشأت تقول :

ـــ يا مسيو جافير ! إنى أسألك الصفح ! وأؤكد لك أنى لم ارتكب خطأ . ولو أنك رأيت المسألة من البداية لتبين لك هذا . أقسم لك بالله العظيم أننى لست المخطئة . بل هذا السيد البورجوازى الذى لا أعرفه هو الذى وضع الثلج فى ظهرى وأنا مارة هكذا بهدوء فى الشارع من غير أن أتعرض بالأذى لأحد ! لقد أثارنى هذا . فأنا مريضة بعض الشىء . وقد فعل هذا بعد أن ظل فترة يلاحقنى بمضايقته وكلماته النابية . قال لى أنت قبيحة الشكل . وانت بلا أسنان . وانا أعرف جيدا أننى صرت بلا اسنان . ولكنى لم أرد عليه . قلت فى نفسى هذا سيد يتلهى . كنت أمينة معه . لم أكلمه وفى هذه اللحظة وضع الثلج فى ظهرى . يا مسيو جافير . يا سيادة المفتش ! الا يوجد أحد هنا ممن شاهدوا هذا الذى حدث ليقول لك إن ما أقوله هو الحقيقة ؟ لعلى أخطأت لأنى غضبت . والمرء كما تعلم فى لحظة المفاجأة لا يتمالك نفسه . ويثور . ثم هو قد وضع هذا الثلج البارد فى ظهرى على حين غرة . أجل أنا مخطئة لأنى أتلفت قبعة هذا السيد . ولكن لماذا انصرف ؟ كنت خليقة أن أقدم إليه الاعتذار . آه ياربى لم يكن يهمنى أن أعتذر له . سامحنى هذه المرة يا مسيو

جافير . أنت تعلم أن السجين لا يتقاضى إلا سبعة صلديات فى اليوم . ولست أقول إن هذا خطأ من الحكومة ، ولكن تصور أننى مدينة بمائة فرنك وإلا طردوا ابنتى . أرسلوها إلى هنا آه ياربى ! أنا لا أريدها معى . إن ما أفعله سيىء جدا . آه يا حبيبتى كوزيت . يا ملاكى يا هبة العذراء المقدسة . ماذا يكون مصيرها هنا بين الذئاب ! سأقول لك ! إن آل تنردييه من الفلاحين الذين لا عقــل لهم ولا يعرفــون الرحمـــة ! كل ما يريدونه هو النقود ! فلا تلقنى فى السجن ! فمعنى هذا إلقاء طفلة صغيرة فى الشارع . فى قلب الشتاء ! شيئا من الرحمة بهذه الصغيرة يا مسيو جافير الطيب ! فلو كانت أكبر سنــا لأمكنها أن تكسب عيشها ، ولكنها صغيرة لا تستطيع شيئا فى هــذه السن . وأنا لست امرأة شريرة فى أعماقى . وليس الطمع ولا الخساسة هما الذى جعلانى هكذا . وقد شربت الخمر ، ولكن بسبب تعاستى . ولست أحب الخمر ، ولكنها تسكر وتلهى ، عندما كنت أسعد حالا كان الناظر فى صوان ملابسى يدرك أننى امرأة فاضلة وحسنة الترتيب ، وكانت عندى ملابس داخلية كثيرة . ارحمنى يا مسيو جافير !

كانت تتكلم هكذا وهى منحنية نصفين ، تهزها الشهقات والنشيج ، وتعميها الدموع ، عارية النحر ، تعض يديها ، وتسعل سعالا جافا فقيرا . والألم الكبير يغير ملامح البؤساء. ولذا تحولت فانتين فى هذه اللحظة إلى امرأة جميلة . وبين لحظة وأخرى كانت تتوقف عن الكلام وتلثم ردنجوت مفتش الشرطة . وكان هــذا خليقا أن يعطف عليهــا قلبــا من الجرانيت . ولكن لا سبيل إلى إلانة قلب من الخشب !

وقال جافير :

ـ هيا! لقد سمعت ما قلت . فهل فرغت من كل أقوالك؟ سيرى الآن ، فلا بد لك من قضاء الشهور الستة فى السجن! والأب السماوى الأبدى نفسه لن يستطيع لك شيئا !

وعند سماع هذه العبارة الرهيبة :

ـ الأب السماوى الأبدى نفسه لن يستطيع لك شيئا !

ادركت ان الحكم قد صدر ، فانهارت متهالكة وصاحت:

ـ الرحمة !

وادار جافير ظهره ، وامسك الجنود بذراعيها .

ومنذ بضع دقائق كان رجل قد دخل من غير ان يلقى أحد إليه باله ، واقفل الباب، ووقف وظهره إليه ، وسمع تضرعات فانتين القانطة .

وفى اللحظة التى وضع فيها الجنود أيديهم على المسكينة التعسة التى لا تريد أن تنهض ، تقدم خطوة ، فخرج من نطاق الظل إلى نطاق ضوء الشمعة وقال :

ـ لحظة من فضلكم !

فرفع جافير عينيه وعرف المسـيو مادلين ، فخلع قبعته احتراما ، وحياه فى ارتباك مشوب بالغضب ، وهو يقول :

ـ معذرة يا سيدى العمدة !

وكان لهذه الكلمة « سيدى العمدة » على فانتين تأثير غريب . فانتصبت واقفة على الفور دفعة واحدة كأنها شبح خرج من جوف الأرض ، ودفعت الجنود بذراعيها واتجهت مباشرة إلى المسيو مادلين ، قبل أن يتسع أمامهم الوقت لمنعها ، ونظرت إليه محدقة فى وجهه بذهول وصاحت :

ــ آه ! أنت إذن سيادة العمدة !

ثم انفجرت ضاحكة ، وبصقت فى وجهه !

فمسح مسيو مادلين البصقة وقال :

ــ المفتش جافير ! أطلق سراح هذه المرأة !

فكاد يجن جنون المسيو جافير . واجتمعت عليه فى هذه اللحظة أعنف الانفعالات المتناقضة التى عرفها فى حياته . فقد رأى فتاة عمومية ، عاهرة محترفة ، تبصق فى وجه عمدة ، وهذا فى حد ذاته عمل يعد مجرد التفكير فيه بمثابة التجديف على رب العالمين ! وفى الوقت نفسه كان يقارن ويقارب بين هذه الفتاة وما يمكن أن تكون حقيقة هذا العمدة الخفية . وعندئذ رأى فى ذلك العمل الفظيع من جانب الفتاة نوعا من البساطة الطبيعية . ولكنه عندما رأى هذا العمدة ــ رجل الدولة ــ يمسح وجهه بهدوء ويقول :

ــ أطلق سراح هذه المرأة !

اعتراه ذهول شديد ، فتوقف عقله عن التفكير ، وتوقف لسانه عن الكلام . وكانت حصيلة دهشته تفوق كل حد ، فظل صامتا .

ولم تكن هــذه العبارة أقل ادهاشـــا لفانتين ، فرفعت ذراعها العارى، واتكأت على حافة المدفأة كمن تخشى السقوط على الأرض ، وراحت تنظر فيما حولهـــا ، ثم شرعت تتكلم بصوت خفيض ، كأنما تحدث نفسها :

ــ يطلق سراحى ؟ يتركنى أذهب اين أشاء ؟ لا أقضى فى السجن ستة أشهر؟ ومن الذى قال هذا؟ مستحيل أن يكون هذا قيل فعلا ! لقد أخطأت السمع ! فلا يمكن أن يكون المتكلم هــذا العمدة الوحش ! أهو أنت الذى تكلم يا مســيو جافير الطيب ؟ أأنت الذى قلت أطلقوا سراحها ؟ أرأيت ؟ سأقول لك كل شيء وستتركنى أمضى لحال سبيلى . إن هذا العمدة الوحش . هذا الوغد المسن الذى جعلوه عمدة ، هو السبب فى كل شيء حدث لى . تصور يا مسيو جافير أنه طردنى من عملى ! وبسبب حفنة من الخسيســـات ينشرن الأراجيف فى الورشة . أليس هذا فظيعا ؟ يطرد فتاة مسكينة تقوم بعملها فى أمانة وشرف ! ولم أستطع بعد ذلك أن أكسب من العمل ما فيه الكفاية ، وبدأ الشـــقاء كله ، وهنـــاك شيء يجب أن تصنعه الشرطـــة أولا . هنـــاك تحسين يجب تحقيقه فى السجون . فالمتعهدون خفضوا الاجر اليوم لحياكة القمصان من ١٢ صلديا إلى تسعة صلديات . وبذلك لا تجــد العاملة ما يكفى للقوت الضرورى. وعندئذ تصنع ما تستطيع لتعيش. وانا عنــدى طفلتى كوزيت ، فكان لابد ان أتحــول إلى امرأة ساقطة . أفهمت الآن يا مسيو جافير أن هــذا العمدة النذل هو سبب المصيبة كلها التى حلت بى وأوصلتنى إلى هــذه الحالة . وبعد ذلك اتلفت قبعة ذلك السيد البورجوازى أمام

مقهى الضباط . ولكنه بدأ فأفسد لى ثوبى كله بالثلج . ومثيلاتى لا يملكن إلا ثوبا حريريا واحدا للمساء . فها أنت ترى يا مسيو جافير أنى لم أصنع الشر عمدا . وأنا حولى نساء أسوأ منى يعشن سعيدات . أوه يا مسيو جافير ! أأنت الذى قلت لهم يطلقوا سراحى ! أليس كذلك ! قم بتحرياتك ، واسأل صاحب بيتى ، يقل لك إنى أقوم بدفع الايجار فى موعده الآن . سيقول لك الجميع إنى أمينة فى معاملاتى ! أسألك الصفح يا مسيو جافير فقد اتكأت على مفتاح المدفأة فبدأ دخانها يتصاعد .

وكان المسيو مادلين يصغى لها بكل انتباه . وبينما هى تتكلم فتش فى جيب صداره . وأخرج كيسه وفتحه ، ولكنه وجده خاويا ، فأعاده إلى مكانه وقال لفانتين :

ــ بكم قلت أنك مدينة ؟ كم يبلغ دينك ؟

فالتفتت إليه فانتين ، التى كانت متجهة إلى جافير دون سواه وصاحت به :

ــ وجهت إليك أنت الكلام ؟

ثم التفتت إلى الجنود وسألتهم :

ــ أرأيتم كيف بصقت على وجهه ؟ يا للعمدة الوغـــد ! لقد أتيت إلى هنـــا كى تخيفنى ولكنى لا أخافك . بل أخـــاف مسيو جافير . أخاف مسيو جافير الطيب وحده !

والتفتت نحو المفتش قائلة :

ــ ها أنت ترى يا ســـيادة المفـــتش . ويجب أن تكون منصفا . وأنا أعرف أنك منصف . وهذا أمر بسيط فى الواقع .

سيد يضع الثلج فى ظهر امراة ، هذا شيء يضحك الضباط ، وهذا طبيعى ، فمثيلاتى مهمتهن تسلية السادة ! ثم أتيت أنت، وعليك مسئولية حفظ النظـــام ، وتقتاد المرأة إلى المخفر ، ولكن بعد التفكير ، وبما انك رجل طيب ، أمرتهم أن يطلقوا سراحى ، من اجل خاطر ابنتى الصغيرة . لأن شهور السجن الستة ستمنعنى من إطعام طفلتى ! ولكن إياك والعودة لهذا يا فاجرة ! اقسم لك انى لن اعود لذلك يا مســيو جافير ! وليصنعوا منذ الآن ما شاءوا ، فلن أبالى ولن أتململ! أما اليوم فقد صرخت لأن ذلك كان مؤلما . ولم أكن أتوقع أبدا أن يضع هذا السيد الثلج فى ظهرى . ثم إن صــحتى معتلة وينتابنى السعال . وأحس كأن فوق معدتى كرة محـــرقة ، وقال لى الطبيب إنى بحاجة إلى علاج . هات يدك تحسس معدتى . هيا ! لا تخف إن الألم ها هنا .

لم تكن تبكى ، بل كان صوتها ملاطفا ، وضغطت على نحرها الأبيض الرقيق يـــد جافير الكبيرة الخشـــنة ، وهى تنظر إليه باسمة .

وفجأة سوت اضطراب ثيابها وأنزلت ثنايا ذيلها التى ارتفعت وهى تزحف إلى مستوى ركبتيها ، وسارت نحـــو الباب وهى تقول للجنود بهزة ودية من رأسها :

— لقد أمر السيد المفتش باطلاقى ، وها انا اذهب .

ووضعت يدها على الأكرة . وبعد خطوة واحدة تصير فى الشارع .

وكان جافير حتى تلك اللحظة قد ظل واقفـــا ، جامد الأوصال ، مطرقا إلى الأرض ، كأنه تمثال فى غير موضـــعه ينتظر ان ينقلوه إلى مكانه الصحيح . ولكن صـــوت تحريك الأكرة أيقظه من شروده ، فرفع رأسه فى ضراوة الســـلطة الوحشية التى يتميز بها ذوو السلطان من السفلة وصاح :

ــ أيها الرقيب ! (الجاويش) ألا ترى هذه المرأة تهم بالخروج ؟ من الذى قال لك أطلقها ؟

فقال مادلين :

ــ أنا !

وكانت فانتين عند سماع صوت جافير قـــد ارتجفت وتركت الأكرة كما يترك السارق الشيء المسروق. ولما سمعت صوت مادلين التفتت ، ومن غير أن تقـــول كلمة واحدة راح بصرها يتنقل من جافير إلى مادلين ومن مادلين إلى جافير ، كلما تكلم أحد منهما .

ولابد ان جافير طاش صوابه ، حتى وجه إلى الرقيب هذا الزجر ، بعد أن طلب العمدة إطلاق سراح فانتين . فهل وصل به الحال إلى إغفال وجود سيادة العمدة ؟ أوصـــل به الحال إلى اعتقاد أنه ما من سلطة يمكن أن تصدر هذا الأمر ، أو أن سيادة العمدة قال غير ما كان يريد أن يقول ؟ أم أنه بازاء ما رآه من انقلاب الأوضاع خال ان وضعه أيضا انقلب فصار هو الأكبر والعمدة هو المرءوس ؟ وان المجتمع والدولة والقانون صارت مجسدة فى شخص جافير ؟

ومهما يكن من شيء، فقد قال المسيو مادلين كلمة « أنا » وإذا بمفتش الشرطة جافير يلتفت نحو سيادة العمدة شاحبا باردا ، وقد ازرقت شفتاه وشردت نظراته ، وقال له خافض البصر ، ولكن ثابت الصوت بحزم :

ــ يا سيادة العمدة . هذا غير ممكن !

فقال مادلين :

ــ وكيف هذا ؟

ــ هذه التعسة اهانت بورجوازيا !

فقال مادلين بهدوء ومسالمة :

ــ أيها المفتش جافير ! اسمع ! انت رجل شريف ، وأنا لا امانع في التفاهم معك . وإليك الحقيقة . لقد كنت مارا بالميدان وأنت تقتاد هذه المرأة ، وكانت هناك بقايا من حشود الناس ، فاستفسرت منهم وعرفت كل شيء . البرجوازى هو الذى أخطأ ، وكان يجب على الشرطة أن تقوم بواجبها فتقبض عليه .

فقال جافير :

ــ هذه البائسة اهانت سيادة العمدة .

فقال مسيو مادلين :

ــ هذا أمر يخصنى . والإهانة وجهت إلى ، وأنا حر التصرف فيها .

ــ عفوا يا سيدى العمدة . الإهانة لم تلحق بشخصك، بل بالعدالة !

ــ ايها المفتش جافير . إن اول عدل هو الضمير . وقد سمعت هذه المراة . وانا اعرف ماذا أصنع.

ــ وانا يا سيدى العمدة لا افقه ما أرى ...

ــ إذن عليك ان تقنع بالطاعة !

ــ انا أطيع واجبى . وواجبى يقضى بأن تقضى هــذه المراة ستة اشهر فى السجن !

فاجابه المسيو مادلين بدماثة :

ــ اسمع جيدا ما أقوله لك . انهـــا لن تسجن يومـــا واحدا !

وعندئذ تجاسر جافير على التحديق فى وجه العمدة ، وقال له بصوته الذى يفيض بالاحترام :

ــ انا آسف لمقاومة سيادة العمدة ، فهذه أول مرة فى حياتى أقدم فيها على ذلك . ولكن اسمح لى أن أقول لك انى اتصرف فى دائرة اختصاصى . وما دام سيادة العمدة يريد التنازل عن حقه ، فأنا اتمســـك بما حدث من اعتـــداء على البورجوازى . فقد كنت هناك . ورايت هذه الفتاة تهجم على المســـيو بماتبوا وهو ناخب وصـــاحب أملاك ، ويملك ذلك البيت الجميل ذا الشرفـــة المكون من ثلاث طوابق من الحجر المنحوت ! وفى الدنيا أمور يجب مراعاتهـــا . ومهما يكن من شىء يا سيادة العمدة فهذا حادث من اختصـــاص شرطـــة الطريق ، وهذا هو اختصاصى ، ولذا فسوف أستبقى المراة فانتين .

وعندئذ عقد المسيو مادلين ذراعيه وقال بصوت صارم لم يسمعه منه احد فى المدينة كلها من قبل :

ــ الحادث الذى رويته من اختصاص شرطة البلدية ، وبمقتضى نص المواد ٩ و ١١ و ١٥ و ٧٠ من القانون الجنائى انا القاضى الطبيعى فى هــذه الحوادث . وانا آمر ان يطلق سراح هذه المراة .

وحاول جافير ان يبذل جهدا اخيرا ، وقال :

ــ ولكن يا سيادة العمدة ..

ــ واذكرك فى الوقت نفسه بالمـــادة ٨١ من القـــانون الصادر فى ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ بشأن الحجز التعسفى !

ــ اسمح لى يا سيدى العمدة أن ..

ــ ولا كلمة واحدة !

ــ ومع هذا ...

فقال مادلين :

ــ اخرج !

وتلقى جافير الضربة واقفا ، كاللطمة على وجهه ، وحيا منحنيا إلى الأرض سيادة العمدة وخرج على الفور !

وكانت فانتين بجوار الباب ، ورأته يمر امامها فى ذهول . ولكنها فى الوقت نفسه كانت فى حالة اضطراب لا مزيد عليه . فقد شهدت وسمعت مشاحنة بين ســلطتين متعارضــتين ،

ورات بعينيها رجلين بيدهما حريتها وحياتها وروحها وطفلتها ، واحد هذين الرجلين يشدها ليدسها فى الظلام ، والآخر يدفع بها إلى النور . فبدا لها هذان الرجلان كأنهما عمـــلاقان ، احدهما يتكلم كالشيطان ، والآخـــر يتكلم كأنه ملك كريم . وها هو الملك هزم الشيطان . ولكن هزها من راسها إلى قدمها أن هذا الملك الكريم هو نفسه الرجل الذى كانت تمقته ، وهو هذا العمدة الذى قضت أمدا طويلا وهى تحسبه سبب كل ويلاتها . ولكن فى نفس اللحظة التى أهانته فيها إهانة فظيعة ناضل لإنقاذها ! أتراها كانت مخطئة ؟ وراحت ترتجف. كانت تصغى زائغة البصر ، وتنظر مذعورة ، ومع كل كلمة تفوه بها المسيو مادلين كانت تشعر أن أعماقها تنصهر وتتبدد منها ظلمات الحقد ويتولد فى قلبها عرفان لا حد له ، وفرح ، وثقة ، ومحبة .

ولما خرج جافير ، التفت نحوها المسيو مادلين وقال لها بصوت متمهل ، وهو يغالب نفسه كى يتكلم بجد من غير أن يبكى :

ــ لقد سمعتك . ولم أكن أعرف شيئا من كل ما ذكرت. ولكنى أشعر أنك صادقة . لماذا لم تلجئى إلى؟ ولكن ما علينا: سأدفع كل ديونك . وساستقدم طفلتك أو تذهبين أنت لتلحقى بها . وسأتكفل بك وبابنتك . وتعيشين هنا أو بباريس أو حيث شئت . ولن تعملى بعد اليـــوم إن أردت هـــذا . لأنى ساعطيك كل ما يلزمكما من نقود. وستعودين كما كنت شريفة سعيدة . وإذا كان ما قلت صحيحا فأنا أعلن أنك كنت دائما شريفة بالقلب والنية أمام الله . يا لك من مسكينة !

وكان هذا أقوى من احتمال فانتين ! تسترد كوزيت ؟ تترك حياة العار ؟ تعيش حرة غنية سعيدة شريفة مع كوزيت؟ تعيش فجأة فى فردوس أرضى ! وراحت تنظر كالمذهولة إلى هذا الرجل الذى يتكلم ، ولم يسعها إلا أن تنخرط فى البكاء . وركعت أمام المسيو مادلين ، وقبل أن يتمكن من منعها كانت قد تناولت يده وطبعت شفتيها فوقها ..

ثم غشى عليها ...

الكتاب السادس

جـــــافير

الفصل الأول

بدايـــة الراحـــة

نقل المسيو مادلين فانتين إلى ذلك المستوصف الذى اقامه فى بيته . وعهد بها إلى الراهبات اللواتى أرقدنهـــا فى الفراش . وعانت من حمى شديدة ، وقضت جانبا من الليـــل تهذى وتتكلم بصوت مرتفع ، ولكنها نامت فى النهاية .

وفى اليوم التالى ، حوالى الظهر ، استيقظت فانتين ، وسمعت تنفســـا قريبا جدا من فراشها . فأزاحت ســـتار الفراش ورأت المسيو مادلين واقفا ينظـــر إلى شىء ما فوق رأسها ، وكانت هذه النظرة تفيض بالشفقة والقلق والتوسل . فتعقبت نظرته فرأتها موجهة إلى صليب مسمر فى الجدار .

وكانت صورة المسيو مادلين قد انقلبت فى عينى فانتين، فصار يبدو لها فى هالة من نور . وهو فى هذه اللحظة مستغرق فى الصلاة والدعاء . فنظرت إليه طويلا من غير أن تجسر على مقاطعته ، واخيرا قالت له على استحياء :

ــ ما هذا الذى تصنعه ؟

وكان المسيو مادلين قد قضى فى مكانه هذا زهاء ساعة ، فى انتظار يقظة فانتين، فتناول يدها ، وجس نبضها واجابها :

ــ كيف حالك الآن ؟

فقالت :

ـــ بخير . لقد نمت . واعتقد أنى تحسنت .

وعندئذ اجابها عن سؤالها الأول ، كأنه لم يسمعه إلا الآن :

ـــ كنت أصلى لهذا الشهيد العلوى ...

واكمل فى نفسه عبارته قائلا :

ـــ لأجل هذه الشهيدة التى على الأرض !

ذلك أن المسيو مادلين قد قضى الليل وهذا الصباح فى الاستخبار ، وصار الآن يعرف كل شىء . عرف قصة فانتين بكل تفصيلاتها الأليمة ، واستطرد :

ـــ لقد قاسيت كثيرا أيتها الأم المسكينة ! لا تبتئسى ، فلديك الآن بائنة مختارى الرب . فعن هـــذا الطريق يتحول البشر إلى ملائكة . فالذنب ليس ذنبهم ، لأنـــه ليس أمامهم طريق آخر . واعلمى أن هذا الجحيم الذى خرجت منه الآن هو أول صور السماء . وكان لابد من البدء به !

وتنهد بعمق ، وابتسمت له تلك الابتسامة البديعة التى ينقصهان سنان .

وكان جافير فى نفس تلك الليلة قد حرر خطابا ، وتولى إيداعه بنفسه فى الصباح مكتب بريد « م » ، وهـــو رســـالة موجهة إلى باريس ، باسم « المسيو شابويه ، سكرتير سعادة مدير الشرطة » . ولما كان حادث مخفر الشرطـــة فى اليـــوم السابق قد ذاع ، وعرفت مديرة مكتب البريد ومن معها خط المسيو جافير ، فأدركوا انها رسالة استقالته من منصبه .

واسرع المسيو مادلين بالكتابة إلى آل تنردييه ، وبدلا من المائة فرنك المدينة بها فانتين لهما ، ارسل المسيو مادلين ثلاثمائة فرنك ، وطلب إليهما إرسال الطفلة على وجه السرعة إلى « م » حيث ترقد أمها مريضة وتريدها معها . فادهش ذلك آل تنردييه ، وقال الرجل لامرأته :

ـ بحق الشيطان ! لن تفلت الطفلة . فقد غدت بقرة حلوبا ، ولا بد أن ثريا مغفلا عشق الأم !

ورد على الرسالة بفواتير مجموعها أكثر من خمسمائة فرنك، من طبيب ومن صيدلى ، كانا فى الحقيقة قد تقاضيا هذه المبالغ لقاء علاج ابنتى تنردييه من مرض طويل . أما كوزيت فلم تعان اى مرض . وكل ما هناك انه ابـدل الأسـماء فى الفواتير . وكتب تنردييه تحت هذه المذكرة عبارة :

ـ وصلنى تحت هذا الحساب ثلاثمائة فرنك ...

فأرسل المسيو مادلين ثلاثمائة فرنك أخرى وكتب يطلب الإسراع باحضار كوزيت . فقال تنردييه :

ـ وحق المسيح لن تفلت هذه الطفلة !

ولم تشف فانتين ، وظلت نزيلة المستوصف . ولم تكن الراهبات فى البداية قد قبلنها وأقبلن على علاجها والعناية بها إلا بامتعاض شديد . وكل من رأى لوحات كتدرائية ريمس REIMS يذكـر انتفـاخ الشـفاه السـفلى للعـذارى الحكيمات وهن ينظرن إلى العذارى الطائشات . وهـذه الزراية من أقوى غرائز الكرامة النسوية . وقد شعرت به

الراهبات مضـــاعفا بتأثير تدينهن . ولكن فـــانتين تمكنت من التغلب على نفورهن فى بضـعة أيام ، فقد كان كلامها دائمــا يدل على العذوبة والتواضـــع والاحتشــــام ، والأم التى فى أعماقها الانت قلوبهن . وقد سمعنها ذات يوم تقول وهى محمومة :

ــ لقد كنت خاطئة ، ولكن عندما تصير طفلتى بقربى فتلك علامة على أن الله غفر لى . وعندما كنت غارقة فى الشر لم أشأ أن تكون كوزيت معى، فلم أكن لأتحمل نظراتها الطافحة بالدهشة والحزن . ولكن من أجلها هى صنعت الشر ، وهذا ما يجعل الله يغفر لى . وسأشعر ببركة الرب عندما تكون كوزيت هنا . سأنظر إليها، ويشفينى أن أرى كل هذهالبراءة. فهى لا تعرف شيئا . إنها ملاك . ملاك لم تسقط أجنحته بعد !

وكان المسيو مادلين يذهب ليراها كل يوم مرتين ، وفى كل مرة كانت تسأله :

ــ هل سأرى كوزيت قريبا ؟

ويجيبها :

ــ ربما كان هذا غدا صـــباحا . ســـتصل بين لحظة واخرى . أنا فى انتظارها .

فيشرق وجه الأم الشاحب وتقول :

ــ أوه ! كم سأكون سعيدة .

وقد قلنا منذ قليل إنها لم تكن تتقدم نحو الشفاء . بل على العكس كانت حالتها تسوء من أسبوع إلى آخر . فتلك



وكان المسيو مادلين يذهب ليراها كل يوم مرتين، وفى كل مرة كانت تسأله:

ـ هل سأرى كوزيت قريبا ؟

القبضة من الثلج التى دست بين لوحى الكتفين سببت لهـــا تفجر مرض كان كامنا فيها منذ عدة سنين . وكانت قد بدأت فى تلك الفترة دراسة أمراض الصدر ، وفحصها الطبيب وهز رأسه ، وسأله المسيو مادلين عما تراءى له ، فقال الطبيب :

ـــ أليست لها طفلة ترغب فى رؤيتها ؟

ـــ بلى .

ـــ أسرعوا إذن بإحضارها .

فارتجف مسيو مادلين. وسألته فانتين عما قاله الطبيب، فتكلف الابتسام وقال :

ـــ طلب سرعة حضور طفلتك ، وقال إن ذلك سيعيد إليك صحتك . .

فقالت :

ـــ أوه ! كم هو على حق ! ولكن ماذا جرى لآل تنردييه حتى يحتجزوا ابنتى هكذا ؟ ولكنها ستحضر . وانى لأرى السعادة تقترب منى مع قدومها .

ولكن تنردييه لم يفلت الطفلة ، وراح يتعلل بالأباطيل ، ويقول إن كوزيت مريضة لا تتحمل السفر فى الشتاء . ثم هناك بقايا ديون باهظة متفرقة يجتهد الآن فى تجميع فواتيرها الخ الخ ... فقال الأب مادلين غاضبا :

ـــ سأرسل من يأتى بكوزيت . وإذا لزم الأمر ذهبت بنفسى !

وكتب بإملاء فانتين هذا الخطاب الذى وقعته بنفسها :

المسيو تنرديبه :

سلم كوزيت لحامل هذا الخطاب . وسيتولى دفع كل الديون واللوازم الأخرى . وأبعث لك بتحياتى وتقديرى — فانتين ...

وفى غضون ذلك وقع حادث خطير . ومهما اجتهدنا فى نحت صخرة مصيرنا ، ونحينا منها العــروق الســوداء او تجنبناها ، فلا بد للعروق السوداء ان تعاود الظهور ...

الفصل الثانى

كيف أمكن لجان أن يغدو شان CHAMP

وذات صباح كان المســيو مادلين فى مكتبه ، منهمكا فى تصريف بعض أعمال العمودية العاجلة ، استعدادا لاحتمال سفره بنفسه عما قريب إلى مونفرمى. عندما قيل له إن مفتش الشرطة جافير يطلب التحدث إليه . ولم يستطع المسيو مادلين مغالبة شعور بعدم الارتياح عند سماعه هذا الاسم . فمنــذ حادث محضر الشرطة ، وجافير يتجنبه قدر الإمكان ، ولم يره المسيو مادلين قط . وقال العمدة :

ـــ ليدخل !

ودخل جافير . .

ظل المسيو مادلين جالسا قرب المدفأة ، وفى يده ريشة ، وعينه على ملف يقلب أوراقه ويخط عليه التعليقات . ولم يغير من وضعه لدخول جافير . ولم يسعه أن يكف عن التفكير فى المسكينة فانتين ، ولذا كان يبــدو باردا فى استقباله لجافير كالثلج .

وحيا جافير العمدة باحترام ، بينما العمدة مول ظهره عنه ، ولم يرفع بصره إليه ، وواصل تصفح الملف . وتقــدم جافير خطوتين أو ثلاثا من المكتب ، ثم وقف من غير أن يشق حجاب الصمت .

وكان أى عالم بالفراسة له دراية بطبيعة جافير، ودرس منذ مدة طويلة هذا المتوحش الذى يعمل فى خدمة المدينة ، هذا المركب العجيب من الرومـــانى والاســبرطى ومن الراهب والرقيب (الجاويش) . هــذا الجاســوس الذى يعجز عن الكذب ، وهذا الواشى البكر . ولو كان هذا العليم بالفراسة يعرف نفوره من المســيو مادلين ، واصــطدامه به بشــأن فانتين ، وتأمل جافير فى هذه اللحظة لقال لنفسه :

— ماذا جرى ؟ واضح ان جافير خارج لتوه من صراع داخلى مع ضميره النقى الضارى .

فجافير كان من الذين لا يجرى فى سريرتهم شىء من غير أن يرتسم محياهم . وكان مثل كل ذوى الطبائع العنيفة عرضة لانقلابات فجائية . ولم تكن سحنته قط فى مثل غرابتها هــذا الصباح . وكان عند دخوله قد انحنى امــام المســيو مادلين ونظرته خالية من الحقد أو الغضب او التحدى ، ووقف على مسافة خطوات وراء كرسى العمدة المريح ، وهناك وقف وقفة انضباط ، فى تصلب وصبر . وظل صامتا لا تصدر منه حركة فى تواضع حقيقى وإذعان هادىء ريثما يحلو لسيادة العمدة أن يلتفت إليه ، وقد أمسك بقبعته فى يده ، وغض بصره ، فى موقف وسط بين وقفة الجندى أمام ضابط ووقفة المذنب امام قاضيه . وقد ارتسم على محياه الجرانيتى حزن صــامت . وكيانه كله ينضح بالاتضاع والحزم معا ، مع تداع لا يخلو من شجاعة .

واخيرا وضع سيادة العمدة ريشته والتفت إليه نصف التفاتة :

ــ ماذا وراءك يا جافير ؟

فظل جافير صامتا لحظة ، كأنما ليستجمع نفسه ، ثم رفع صوته وقال بجد وبساطة :

ــ لقد حدث يا سيادة العمـــدة حدث ما كان يجوز أن يحدث !

ــ اى حدث هذا ؟

ــ احد صغار رجال السلطة أساء الأدب فى حق كبير من رجال القانون والدولة بصـــورة خطيرة جدا . وقد أتيت بمقتضى واجبى أبلغك الواقعة .

فسأله مسيو مادلين :

ــ ومن هذا الجانى ؟

فقال جافير :

ــ انا !

ــ أنت ؟

ــ انا !

ــ ومن هو رجل القانون والدولة الذى من حقه أن يشكو من هذا الجانى ؟

ــ انت يا سيادة العمدة !

فوقف المسيو مادلين ، وواصل جافير كلامه فى صرامة ، وهو ينظر إلى الأرض :

ـــ يا سيادة العمدة . لقد حضرت لأرجوك أن تطلب من السلطات العليا فصلى من الخدمة !

ففغر المسيو مادلين فاه مذهولا وهمأن يتكلم ولكن جافير قاطعه قائلا :

ـــ قد تقول إنه كان بوسعى تقـــديم استقالتى . ولكن هذا لا يكفى . فتقديم الاستقالة يصون الشرف ، فى حين أننى اخطات ويجب ان أعاقب . ولذا وجب طردى .

وبعد لحظة صمت أردف :

ـــ سيدى العمدة ، لقد كنت منذ أيـــام قاسيا على بغير حق ، فكن قاسيا اليوم بحق !

فصاح مسيو مادلين :

ـــ ولماذا ؟ ما هذه الأحاجى ؟ ما معنى هذا ؟ وأين حدث منك هذا العدوان على شخصى ؟ ما الذى فعلته لى ؟ وما وجه هـــذا الخطأ ؟ إنك تتهم نفســـك ، وتطلب ان يحـــل غيرك محلك . . .

فقال جافير :

ـــ بل أطلب ان أطرد ! .

ـــ ليكن ! هذا حسن جدا ! لكنى لا أفهم شيئا !

فتنهد جافير من أعماق صدره ، واستأنف الكلام ببرود وحزن معا :

ـــ سيدى العمدة ! منذ ستة أسابيع . على أثر المشادة بسبب تلك الفتاة ، كنت غاضبا فوشيت بك !

— وشيت بى ؟ !

— إلى إدارة الامن العام فى باريس !

ولم يكن المسيو مادلين كثير الضحك — شأنه شأن جافير — ولكنه ما إن سمع هذا حتى قهقه عاليا :

— أشكوتنى لإدارة الأمن العام بصفتى عمدة جار على سلطان الشرطة ؟

— بل بوصفك نزيل ليمان سابق !

فاكفهر وجه العمدة ، واسترسل جافير من غير أن يرفع عينيه عن الأرض :

— كان هذا هو اعتقادى . ومنذ وقت طويل خامرتنى افكار . فهناك أوجه شبه ومعلومات وصلتنى ، معلومات عنك عندما كنت فى فافيرول FAVEROLLES وقوة حقويك وكليتيك كما ظهرت فى حادثة فوشليفان ، وبراعتك فى إصابة الهدف ، وساقك التى تضلع قليـــلا ، وهذاء من هـــذا القبيل . وعلى الجملة حسبتك المدعو جان فلجان !

— المدعو من ؟ . . . كيف ينطق هذا الاسم ؟

— جان فلجان . إنه نزيل ليمان سابق كنت رأيته عندما كنت نائب رئيس حرس السجن فى طولون . وكان جان فلجان هـــذا بعد مغادرة الليمان قد سرق فيما يبدو بيت أسقف ، ثم اقترف سرقة أخرى بالقوة فى الطريق العام من غلام صغير من أبناء السافوا . واختفى أثره منذ ثمانى سنين فلم يعد أحد يدرى عنه شيئاً وعبثا بحثوا عنه . فتصورت انا . . واقدمت على هذا التبليغ تحت تأثير الغضب !

فقال المسيو مادلين الذى كان قد تناول الملف منذ لحظات ، بلهجة عدم الاكتراث التام :

ـ وبماذا اجابوك ؟

ـ بأننى مخبول !

ـ ثم ماذا ؟

ـ كانوا على حق !

ـ حسن منك أن تعرف هذا !

ـ كان لا بد من ذلك ، لأنهم عثروا على جان فلجان الحقيقى !

فسقطت من يد المسيو مادلين الورقة التى كان ممسكا بها ، ورفع راسه وثبت نظره فى جافير وقال بنبرة لا يمكن الإحاطة بوصفها :

ـ آه !

وواصل جافير كلامه :

ـ إليك ما حدث يا سيدة العمدة . يبدو أنه كان فى الإقليم ، من ناحية « أيى لى هو كلوشيه » AILLY-LE-HAUT CLOCHER رجل كانوا يسمونه الأب شانماتييه CHANMATHIEU . وكان هذا الرجل بائسا جدا ، فلم يلتفت إليه أحد . ولا يدرى الناس من أين يعيش هؤلاء . واخيرا ، فى هذا الخريف قبض على الأب شانماتييه لسرقة تفاح يستخدم للعصير ، من .... ليس لهذا أهمية ! المهم أنه حدثت سرقة ، وتسلق سور ، وتكسير أغصان

شجرة . وقبض على شانماتييه . وكان غصن شجرة التفاح ما يزال فى يده ، وحبسوه . وإلى هنا والمسألة جنحة عادية . ولكن هاك ما تدخلت به يد العناية . فقد كان ذلك الحبس فى حالة سيئة ، فأمر قاضي التحقيق من المناســب نقل المتهــم شانماتييه إلى أراس حيث السجن المركزى. وفى سجن أراس هذا يوجد نزيل ليمان قديم اسمه بريفيه BREVET مسجونا لتهمة لا أدريها ، ولحسن سلوكه جعلوه حارس أحد العنابر . وما كادوا يأتونه يا سيادة العمدة بشانماتييه حتى صاح بريفيه: « أنا أعرف هذا الرجل ! إنه زميل سابق فى الليمان ! انظــر فى وجهى جيدا يا رجل ! أنت جان فلجان ! » .. وتصــنع الرجل الدهشة وتساءل من عساه يكون جان فلجان هذا — فقال له بريفيه: لا تتصنع الخبث! أنت جان فلجان! وكنا نزيلين معا ! وأنكر شانماتييه . ولكنهم تعمقوا فى التحرى . وبلغتنى هذه المعلومات . واتضح لهم أن شانماتييه هذا كان منذ نحو ثلاثين سنة عامل تقليم أشجار فى عدة قرى ولا سيما فافيرول. وهناك عثروا على أثره . وبعد فترة طويلة شوهد فى أوفرنى AUVERNE ، ثم فى باريس حيث قال إنه عمــل نجــار عربات وكانت له ابنة غسالة ، ولكن ذلك لم يثبت ، ثم شوهد فى هذا الاقليم . وقبل أن يدخل جان فلجان الليمان ماذا كانت مهنته؟ تقليم الأشجار. أين؟ فى فافيرول. وهذه قرينة أخرى. وكان اسم جان فلجان فى العماد هو جان . واسم عائلة أمه ماتييه MATHIEU (متى) . وطبيعى أنه عند خروجــه من الليمان اتخذ اسم أمه ليخفى اسمه الحقيقى فصار اسمه جان ماتييه . ولما ذهب إلى أوفرنى ، وجد الناس ينطقون جان

« شان » فسموه شانماتييه ، وتركهم الرجل ينادونه هكذا . وبالاستعلام فى فافيرول ، اتضح أن أسرة جان فلجان اختفت ولم يعد أحد يعرف أين هى . وأنت تعرف أن هذه الطبقات كثيرا ما تختفى فيها معالم عائلات بأسرها . ولم يسفر البحث عنهم عن أى طائل . فأمثالهم عندما لا يكونون وحلا. يتحولون إلى تراب . ولما كان هذا التاريخ يرجع إلى ثلاثين سنة ، لم يوجد فى فافيرول أحد يتذكر جان فلجان . وأجريت تحريات فى طولون ، فاذا بهم لا يجدون — غير بريفيه — إلا سجينين كانا يعرفان جان فلجان ، وهما السجينان المؤبدان كوشباى COCHEPAILLE وشنيلدييه CHENILDIEU فجىء بهما من الليمان وواجهوهما بالمدعو شانماتييه ، فلم يترددا وقررا — مثلما قرر بريفيه — أن هذا هو جان فلجان . نفس العمر . فسنه ٥٤ سنة . ونفس القامة . ونفس السحنة . انه نفس الرجل . وفى هذا الوقت بالذات أرسلت بلاغى إلى إدارة الأمن العام بباريس ، فردوا على بأنى مجنون لأن جان فلجان موجود فى أراس فى يد العدالة . وقد أدهشنى هذا لأنى كنت أظن أنى وضعت يدى هنا على جان فلجان هذا بلحمه ودمه . فكتبت إلى قـاضى التحقيق ، فاسـتدعانى ، وجىء لى بالمدعـو شانماتييه . . .

فقاطعه المسيو مادلين :

— وبعد ؟

فأجابه جافير بأسى وصدق :

— سيدى القاضى . الحقيقة هى الحقيقـة . وقـد

اغضبتنى ، ولكن ذلك الرجل كان هو بعينه جان فلجان ، وانا ايضا عرفته .

فقال مسيو مادلين بصوت خفيض :

ـــ امتأكد انت ؟

فأخذ جافير يضحك تلك الضحكة المؤلمة التى تنم على اقتناع عميق :

ـــ متأكد !

وظل شاردا برهة ، ثم تناول قبضة من نشارة الخشب الناعمة التى تستخدم لتجفيف الحبر من فوق المكتب وقال :

ـــ والآن وقد رأيت جان فلجان الحقيقى لا ادرى كيف اعتقدت غير ذلك . واستميحك العفو يا سيدى العمدة .

وإذ قال هذه العبارة فى توسل للرجل الذى اذله منذ ستة أسابيع وسط المخفر وقال له « اخرج ! » . كان جافير المتكبر آية فى البساطة وعزة النفس معا . ولم يرد المسيو مادلين على توسله إلا بهذا السؤال المفاجىء .

ـــ وماذا قال ذلك الرجل ؟

ـــ آه يا سيدى العمدة ! وضعه سيىء ومصيره أسود إذا كان هو جان فلجان ، فالعقوبة مشددة لأنه مذنب عائد للجريمة . وقد تسلق جدارا ، وكسر غصنا ، وسرق تفاحا . ولو أن طفلا صنع هذا لكان مجرد شيطنة ومجون . أما ان يصنع هذا بالغ فهو جنحة . وإذا اقترفه نزيل ليمان سابق فهو جناية . وخصوصا أن السرقة مصحوبة بالتسلق . فلا بد من تقديمه لمحكمة الجنايات . والعقوبة ليست السجن بضعة

ايام ، بل السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة بالتجـديف فى السفن . ثم هناك سرقة الغلام الصغير من السافوا . فالوضع سيىء . والرجل ماكر ذلك المكر الذى اعهده فى جان فلجان . ولا غيره لصرخ وولول ، ولكن الرجل مصر على رفض الاعتراف بانه جان فلجان . ويبدى عدم الفهم لما يدور حوله ، ويتباله ! كم هو بارع فى التمثيل ! ولكن لا اهمية لهذا ، فالأدلة متوفرة . وقد تعرف عليه اربعة أشخاص . فالحــكم عليــه مؤكد . واحيلت القضية إلى محكمة جنايات أراسى ، وسوف أتوجه للشهادة امام المحكمة ، فقد اعلنت بالحضور .

وكان المسيو مادلين قد جلس إلى مكتبه كما كان ، وتناول الملف ، وراح يقلبه بهدوء . ويقرأ ويكتب كالمنهمك فى العمل ، والتفت إلى جافير وقال :

ـــ حسبك ياجافير . فهذه التفصيلات لا تعنينى . نحن نضيع وقتنا وامامنا اعمال كثيرة عاجلة . عليك يا جافير أن تذهب فورا إلى المرأة «بينروبييه» BUNERUPIED التى تبيع الأعشاب عند زاوية شارع سان سولف SAINT-SAULVE، وتقول لها أن تقدم شكواها ضد حوذى النقل بيير شـــيزنلون CHESNELONG . فهذا الرجـــل المتوحش كاد يســحق بعربته تلك المرأة وطفلها . ولا بد من عقابه . ثم اذهب بعد هذا إلى المسيو شارسليه CHARCELLAY فى شارع مونتر دى شامبينى MONTRE DE CHAMPIGNY ، فهو يشكو لأن ميزاب المنزل المجاور يصب ماء المطر على بيتـــه ويتهدد أساسه . ثم تحقق مخالفات الشرطة فى شارع جيبور

GUIBOURG عنـــد الأرملة دوريس DORIS ، وفى شارع جـــاروبلان GARRAUD-BLANC عنـــد مـــدام رينيـــه رينيـــه لى بوســـيه RENEE LE BOSSE وتحرر محضرا بذلك . ألست ستقوم بأجازة ؟ الم تقل لى إنك ستذهب إلى اراس للشـــهادة فى تلك القضـــية فى مدى ثمـــانية أيام أو عشرة ؟ ...

— بل قبل هذا يا سيدى العمدة .

— فى أى يوم إذن ؟

— اظننى قلت لسيادة العمدة إن المحاكمة ســـتجرى غدا ، وإنى سأستقل حافلة الليلة .

فندت عن المسيو مادلين حركة لم يلحظها جـــافير ، وساله :

— وكم يوما ستستمر هذه القضية ؟

— يوما واحدا على الأكثر . وسوف يصدر الحكم مساء غد على الأكثر . ولكنى لن أنتظر سماع الحكم . ومتى أدليت بشهادتى عدت إلى هنا .

فقال مسيو مادلين :

— هذا حسن .

وصرف جافير بإشارة من يده . ولكن جافير لم ينصرف ، وقال :

— عفوا يا سيدى العمدة .

فسأله المسيو مادلين :

ـــ ماذا هناك ايضا ؟

ـــ بقى شيء أريد أن اذكرك به ..

ـــ وما هو ؟

ـــ إننى ينبغى أن اعزلِ !

فنهض المسيو مادلين قائلا :

يا جافير ! انت رجل شريف ، وانا اقدرك . وأنت تبالغ فى غلطتك هذه . ثم إن هذه إساءة تخصنى انا ، اعلم يا جافير انك جدير بالترقية لا بالعقاب . وأريد أن تحتفظ بمنصبك .

فنظر جافير إلى المسيو مادلين بعينيه الصريحتين اللتين كأن المرء يرى فى اعماقهما ضميره الصارم العف ، وقال بصوت هادىء :

ـــ سيدى العمدة . لا يمكننى أن أجيبك إلى هذا .

فقال المسيو مادلين :

ـــ وأنا اكرر قولى إن هذا الأمر يعنينى أنا .

ولكن جافير تشبث بفكرته وقال :

ـــ اما عن اننى أبالغ ، فأنا لم أبالغ . وإليك كيف أفكر فى الأمر . لقد ارتبت بك بغير حق ، وهذا ليس شيئا ذا بال . فمن حقنا نحن الشرطة أن نرتاب ، وإن كان من الخطأ أحيانا أن نرتاب فيمن فوقنا . ولكننى تحت تأثير الغضب ، وبدون ادلة ثابتة ، أبلغت عنك انت الرجـــل المحترم والعمـــدة ممثل القانون انك نزيل ليمان ! وهذا شيء خطير . خطير جدا ! لقد أهنت السلطة فى شخصك ، وانا من خدام السلطة ! ولو فعل مثل هذا احد مرءوسى لقررت عدم صـــلاحيته للخـــدمة

وطردته . اسمع منى كلمة أخرى يا سيادة العمدة . كثيرا ما كنت أنا قاسيا فى حياتى ضد الآخرين ، ولكن ذلك كان عدلا، فهو خير . وما لم أكن قاسيا هذه المرة فى محاسبة نفسى لما كنت عادلا . أفيجوز لى أن أغض الطرف عن جرمى وأنا أقسو على جرائم غيرى ؟ كلا ! لا يحق لى عقاب الآخرين وترك نفسى بلا عقاب ! لأكونن إذن بائسا شقيا ! ويكون من يمقتوننى فى هذه الحالة على حق . يا سيدى العمدة أنا لا أتمنى أن تعاملنى بطيبة . وكم كانت طيبتك مع غيرى تثير سخطى وتجعل الدم يغلى فى عروقى ! ولذا لا يحق لى أن أتقبلها لنفسى ! هــذه الطيبة التى تنصر فتاة عموميـــة على برجـوازى من ذوى الأملاك ، ورجل الشرطة على العمدة ، والأدنى على الأعلى ، اسميها الطيبة السيئة ! ومثل هذه الطيبة تفسد المجتمع ! يا إلهى ! ما أسهل أن يكون المرء طيبا ، أما العدالة فصعبة عسيرة التحقق ! ولو صح أنك من كنت أظنه ما كنت طيبا معك . ولرأيت عندئذ ما أفعل بك ! لا بد يا سيادة العمدة أن أكيل لنفسى بعين المكيال الذى أكيل به للآخرين ! وكنت كلما قسوت على مذنب أقول لنفسى : « الويل لك منى يا جافير اذا ضبطتك متلبسا بخطأ يستوجب العقاب ! » . فلتطردنى يا سيادة العمدة ، لا يضير ضميرى هذا ، فأنا لى ذراعان قويتان ، وسأعمل فى الأرض ، ولن يضيرنى هذا . إن صالح الخدمة فى ضرب المثل الصالح . ولذا التمس منك طرد المفتش جافير من الخدمة !

قال ذلك كله بتواضع وأنفة ، بيأس واقتناع ، فأضفى ذلك عليه عظمة من نوع غريب . عظمة الأمانة والشرف .

وقال المسيو مادلين :

ــ سنرى ...

ومد إليه يده ليصافحه ، فتراجع جافير وقال بشراسة :

ــ هذا شيء لا يجوز يا سيادة العمدة. العمدة لا يصافح واشيا متجنيا ! وما دمت قد أسأت استخدام منصبى فأنا لست إلا واشيا حقيرا .

ثم انحنى انحناءة عميقة واتجه إلى الباب . وهناك التفت وقال وهو يغض الطرف :

ــ سيدى العمدة . سأستمر فى عملى إلى أن يحل غيرى محلى ...

وخرج . وظل المسيو مادلين شاردا ، يصغى لخطواته الثابتة الواثقة وهو يبتعد فى الدهليز ...

٤٣٧٩

رقم الايداع : ٦ ــ ٠٨٠ ــ ٢٦٣ ــ ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

تليفـــون : ٨٢٦٢٨٠ القـــاهرة


کتابی



مطبوعات كتابى

إصـــدار جـــديد

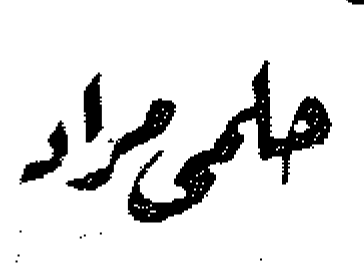


عزيزى القارئ ..

فى الكتاب السابق قدمت لك الجزء الأول من هذه الترجمة الكاملة الأمينة (أول ترجمة « مصرية ») لملحمة فيكتور هيجو الخالدة « البؤساء » التى لم تترجم ترجمة كاملة فى مصر من قبل .. وفيها يبرز هيجو كمدافع عن الضعفاء والمهزومين والمضطهدين .

وقد عايشنا فى الجزء الأول كلا من مسيو ميرييل كاهن مدينة DIGNE التى تقع فى جنوب فرنسا ، على الطريق بين (طولون) و (باريس) ، وهو الكاهن الذى تولى منصبه منذ عام ١٨٠٦ ، وعاش فى تلك المدينة الصغيرة مع شقيقته الانسة « بابتستين » ، وكان فى الخامسة والسبعين من عمره .. ثم تعرفنا على زائره المدعو « جان فالجان » الذى قضى فى السجن تسعة عشر عاماً ، عقاباً له على سرقة رغيف من الخبز ، وعلى محاولاته المتكررة للفرار من السجن .. ورأينا كيف عجز السجين عن العثور على عمل أو مأوى (بعد خروجه من السجن) بسبب صحيفة سوابقه التى وقفت عقبة فى طريق توبته وتأقلمه مع المجتمع .. فلما فتح له الكاهن باب بيته فآواه وأطعمه ، عض التعس اليد التى أحسنت إليه ، فسرق الشمعدان والأوانى الفضية من بيت القسيس تحت جنح الظلام وحين ضبطه رجال الشرطة وأعادوه إلى القسيس ، كرر هذا المحسن موقفه النبيل فزعم للشرطة أنه أعطى هذه الأوانى للسارق بمحض اختياره ، كهدية تعينه على الحياة .. ثم توالت أحداث الجزء الأول فتعرفنا على المدعو « تيناردييه » وزوجته ، ثم تعرفنا على « فانتين » ، وابنتها « كوزيت » ، وعلى الرجل المثالى مسيو « مادلين » .. ثم رجل الشرطة القاسى « جافير » الذى اشتبه فى أن « مادلين » هو المجرم السابق « جان فالجان » ! فأخذ على عاتقه أن يطارده حتى يكشف حقيقته ويعيده إلى السجن من جديد ..

واليوم تعال معى نتابع أحداث الرواية الشائقة فى هذا الجزء الثانى منها .





١٠٠ قرش